
نسف المعبد
تأليف : سلفادور دي مادارياجا
ترجمة : محمد سامي عاشور
الناشر
مؤسسة سجل العرب
ت : ٤٩٩٩٩

نسف المعبد

تأليف

سلفادور دي مادارياجا

ترجمة

محمد سامي عاشور

الناشر
مؤسسة سجل العرب

THE BLOWING UP OF THE PARTHENON

Published by Frederick A. Praeger, N.Y.

خطاب مفتوح

إلى أحد المثقفين اليساريين



تمهيد

سيدى العزيز « أوسيدتى العزيزة » .

إنك حين تجادل حكومتك وتنصر قضية الخدمات العامة على قضية التسلح ، كما هى عادة البريطانيين وهم يبحثون الوسائل والأساليب ، فإن ضيف بلدك الصديق لا يملك أن يقف منك إلا موقف الشاهد . أما حين تثير فى جدلك مسألة من المسائل ذات الأهمية العالمية ، فإن من حق أى مواطن من مواطنى هذا العالم أن يناقشك . وبريطانيا هى أحد شعوب العالم الرئيسية فى مجال المناظرات العالمية ، وحزب العمال هو أحد الأحزاب الرئيسية فى بريطانيا العظمى ، وأنت بدورك المصدر الذى تنبثق منه آراء هذا الحزب. ولذلك فليس فيما تقوله فى شئون هذا العالم ما يمكن أن يكون عديم الأهمية بالنسبة لمواطن من مواطنى هذا العالم .

والآن ، وبعد فترة طويلة من الفوضى والاضطراب التاريخى تبدو أحوال الناس وقد أخذت تتجه نحو استتباب الأمن العالمى ، وإن كان عليها من سوء الحظ أن تمر أولا ، وهى فى سبيل الحل والتبسيط بمرحلة خطيرة اتخذت فيها صورة صراع بين معسكرين . ومن ثم كان علينا جميعاً أن يتفهم كل منا حقيقة هذا الصراع وطبيعته . ولـكن أنى لعامة الناس أن يتفهموها والقادة أنفسهم عاجزون عن ذلك ؟ إن كثيرين

منا — أوروبيين ، ومواطنين عالميين ، وأصدقاء لبريطانيا العظمى ، ومعجبين بها — ممن لم ينحازوا إلى حزب المحافظين ، بل ممن لا يشعرون بعطف نحو ذلك الحزب ، قد راقبوا حزب العمال مع ذلك بشيء من الأسى واليأس . فنحن نعجب بمواهب زعمائه بأكثر مما يفيدون هم أنفسهم من مواهبهم ، ونعجب بذكائهم بأكثر مما نُعجب بآرائهم ، ثم نعجب بعد ذلك لأصحاب هذه العقول الناضجة كيف تعمى أبصارهم إلى هذا الحد عن إدراك أبرز مظاهر هذا الصراع الذى يتوقف عليه بقاء الناس أو فناؤهم .

الجواب على الشيوعية

لقد قال أحد زعمائكم « إننا نريد أن نركز عقولنا دائماً على المبادىء ، لا على الأشخاص » ونحن كلنا نتفق معه فى هذا الرأى ، وإن كان السؤال الذى لابد أن يدور فى عقولنا بعد ذلك هو : وماذا عساها أن تكون تلك المبادىء ؟ فلقد نجهد أنفسنا فى تبين الإجابة على هذا السؤال من بين خطبهم وأحاديثهم فلا نهتدى فيها إلى شىء . قد نجد فيها عبارات جريئة ، أو قد نجد فيها عبارات طائشة ، ولكننا لن نجد فيها مبادىء . والمبادىء ، مثلها كمثل خطوط التليفزيون المتشابكة إنما هى الوسيلة الماكرة التى لا يمكن للعقل أن يتبين الأمور بدونها . فهل يمكن ياترى أن يكون هذا الغموض الذى يعشور مبادئك هو السبب فى عجزك المحير عن أن تتبين حقيقة ما يجرى حولك ؟

واضرب لذلك مثلا

« إن الأخطار التى تنجم عن الشيوعية ، إن كانت هناك ثمة أخطار ، إنما مردها إلى عجزنا عن إصلاح الأخطاء الكامنة فى المجتمع الغربى ، لا إلى الخطط والأساليب العسكرية . وإن من بين الأسباب التى تجعل المحافظين عاجزين عن أن يفكروا بغير أسلوب المدفع والقنبلة هو أن الرد الوحيد على الشيوعية السوفييتية هو فى تغيير النظم الاجتماعية والمبادىء الاجتماعية تغييراً تتردد نفوس المحافظين فى قبوله أو هضمه » .

واسمح لى يا سيدى بأن أزيل المحافظين الآن من الصورة ، وألا أحتفظ فيها إلا بالفلسفة السياسية الكامنة بين سطور العبارة السابقة. فهل أنت تؤمن حقاً بأن الرد على الشيوعية السوفييتية هو فى تغيير النظم والمبادىء الاجتماعية ؟ وهل تعتقد أن دولة واحدة من دول أوروبا انقلبت إلى الشيوعية السوفييتية لأن نظمها ومبادئها الاجتماعية لم تكن طيبة إلى القدر الكافى ؟ بل هل تعتقد أن شعباً أوروبياً واحداً كان يمكن أن يعتنق نظاماً يلغى ما لنقابات العمال من حرية ، ويقضى على حق العامل فى الأحزاب ، ويقوض حرية الصحافة وحرية الأحزاب وحرية الاجتماع من أساسها ، ويلقى بمعارضيه إلى معسكرات للاعتقال لا تكاد تزيد على أن تكون مداخل تؤدى إلى القبور، لولا تدخل الجيش الأحمر فعلاً أو تهديداً ؟

لقد سمعتك وأنت تجادل فتقول إن أصدقاءنا الأمريكيين ، بسياستهم الاقتصادية والمالية يحدثون من الضرر بشعوب غرب أوروبا مالا يستطيع

أن يطمع خروشوف فى أن يحدثه بهم. وأنا أسلم معك بأنه ما من رجل يملك جميع حواسه إلا ويستنكر جوانب كثيرة من سياسة الولايات المتحدة الاقتصادية والمالية ؟ ولـكن هل يليق بك حتى إذا تناسينا مشروع ما رشال وغيره من أنواع المونة التى مهما قيل فيها فإن حسناتها قد بزت أخطاءها ، أن تجمل الضرر الذى ألحقته سياسة أمريكا بأوروبا الغربية أشد وطأة مما تستطيع موسكو أن تلحقه بالغرب ؟ فهل أنت مستعد بعد ذلك للتمسك بهذا الذى كنت تجزم به ؟ فإن كنت فاعلا ، فلذلك أحد تفسيرين لا ثالث لهما : فإما أنك تجهل الأهوال السياسية والآلام الفردية ، التى جلبها حكم السوفييت على عدد من دول أوروبا ، وإما أنك لا تعتقد بأن موسكو يمكنها أن تتغلب على الغرب حتى ولو بقى الغرب غير مسلح . أما الواقع فهو أن كلا الرأيين لا يجد له سنداً يعززه . وإذن فماذا عساك تعنى ؟ وما هى مبادئك يا ترى ؟

طبيعة السلام

وإننى لأراك تعلن بأنك « لا يمكن أن تغتفر » أى تعامل مع فرانـكو . وما من طريد أسبانى إلا ورأيته يحظى منك بالثناء والمديح فى استنتاجك المنطقى للأمور . ولـكن ما هى فروضك المنطقية التى بدأت منها قبل أن تصل إلى هذا الاستنتاج ؟ ما هو مبدؤك ؟ فإذا لم يكن هناك تعامل مع فرانـكو فلمَ وكيف يكون هناك تعامل مع خرشوف ؟ وإنك ولا شك لتفـكر نفس التفـكير وأنت تنادى من بين ما تنادى به « هيا اشرعوا فى العمل من أجل السلام بدلاً من أن تعملوا طول

الوقت من أجل هذه الحرب!» ، أوحين تقول « هيا تحدثوا عن السلام واعملوا من أجل السلام ! » . بل إن مثل هذه العبارات التى تجرى على لسانك لهى أدعى إلى الأسف، وذلك لأنها مجرد تقليد لشعارات موسكو، وأنت ولاشك أكثر تمرساً بشئون السياسة من أن تتجاهل نتائج ذلك ، فكلامك ينشر فى الصحف الشيوعية، تنقله عنك على صفحاتها بوصفك واحداً من الجنود الجدد فى حملة « السلام » المقدسة ، وإنها لو علمت لَحَمْلَةٌ تبز فى نفاقها كل ما ابتكره الإنسان ، ابتدعها أصحابها لكى يخدعوا بها من هم أكثر منك بساطة وغرارة .

وأنت لا يمكن أن تكون غير مدرك لطبيعة السلام ولا شك . فالسلام ليس تسليماً ، وإنما هو استمتاع بالحرية والأمن استمتاعاً إيجابياً يظلله ويشد من أزره التفكير المستند إلى العقل والمنطق ، فكيف يتأتى لك أن تطلب السلام ممن ينكرون استخدام العقل ويعتبرونه « انحرافاً موضوعياً » ، ويستنكرون الحرية ويعتبرونها من مخلفات البورجوازية؟ إن السلام الحقيقى هو وليد اتفاق حر بين جماعات حرة ، فأنت لا تستطيع أن تتفق «أو أن تختلف » مع من كان مخموراً أو من فقد صوابه فى ثورة الغضب ، أو كان فاقداً لقواه العقلية ، ذلك أن مثل ذلك الرجل لا يكون فى سلام حتى مع نفسه ، وإنك لتعلم أنك لا تستطيع أن تحقق السلام إلا بالسلام .

والآن ، من يا ترى تريدنا على أن تحقق معه سلاماً ؟ مع موسكو ؟ أم مع ضحاياها ؟ إن عليك أن تختار بينهما . فما دامت موسكو فى حرب

مع نصف شعوب أوروبا ـ إما مباشرة أوعن طريق حكوماتهم العميلة ـ فأنت لا تستطيع أن تسالم موسكو ، إلا إذا أعلنت الحرب أنت كذلك على نصف شعوب أوروبا . فهل هذا ما تعنيه حين تقول « هيا اشرعوا فى تحقيق السلام ! ؟ » .

ثم هل لك فى كل ذلك مبدأ معين ؟ إننا ، معشر الأوربيين نخشى أن تكون هذه المسائل قد غابت عن تفكيرك ، أو أن تكون قد فكرت فيها فجافاك الصواب فيما وصلت إليه من نتائج . إن العبارات التى تنطق من بين شفتيك ، ومن بين شفاه أصدقائك ، ليبدو من رنينها فى حالات كثيرة كما لو كنتم على استعداد لتسليم نصف شعوب أوروبا ، بقضهم وقضيضهم، لموسكو ، بشرط أن يظل مستوى العيش بين الطبقات العاملة فى بريطانيا على ما هو عليه فلا يتأثر بشىء . فهل هذا مبدؤك ؟

ولعلك تقول فى خلال جدلك « ما هذا ؟ الحرب ؟ إننا ما دمنا عاجزين عن أن نفعل مامن شأنه أن ينقذهم مما هم فيه إذن فليلقوا مصيرهم المحتوم » ومع ذلك فهناك ردود كثيرة على مثل هذا الذى قد تقول . فالمسائل التي تتعلق بالحياة أو الموت لا يمكن أن تترك تتهادى فوق تيار التجريب الذى يجرى سهلا ناعماً . فهل أنت تقبل أو لا تقبل فى قرارة نفسك أن يظل أهل أوروبا الشرقية يرسفون إلى الأبد فى أغلال العبودية ، وأن تتحول شعوبها إلى مستعمرات ذليلة يجرى عليها السوفييت تجاريبهم الاقتصادية ؟ معاذ الله أن يتحول الصراع الحاضر إلى حرب ساخنة ، ولكن الحرب الروحية لابد من أن تظل قائمة مادام أهل أوروبا الشرقية يلقون ما يلقون من ظلم وعنت ، إذ لا سبيل لنا

إلا أن نقف بجانبهم ضد ظالميهم ، لا أن نقف بجانب ظالميهم ضدهم . هذا بالطبع — على حد قولك — إن كنت تؤمن بالمبادىء ، فإن الوقوف بجانب الحق يضفى على صاحبه قوة وبأساً . أما أن يدع الإنسان الحق يضيع لا لشيء سوى أنه الطريق المأمون فذلك هو الفساد بعينه .

أما عن الحرب فهى فى واقع الأمر قائمة فى الوقت الحاضر فالحرب ليست مجرد سلسلة من الوقائع . إنها صراع بين إرادات متنافرة ، وهذه الحرب قائمة الآن بالفعل بين الإرادة الشيوعية وبين الإرادة الديمقراطية الحرة . إنها حرب ساخنة فى بقاع كثيرة من آسيا ، باردة فى الغرب ، ولكنها حرب ساخنة كذلك فى أوروبا الشرقية . إن نصف شعوب أوروبا فى حرب فعلية ، بعضها حرب نشطة تجرى تحت سطح الأرض وبعضها حرب سلبية تجرى سافرة ، فرضتها عليهم موسكو . ففى كل يوم يُلقَى بالمئات ، بل بالآلاف ، من أهل أوروبا الشرقية إلى معسكرات الاعتقال ليموتوا فيها ، أو يتخذ منهم هدف لجنود التصويب السوفييتية ومن ثم فإن هذه الشعوب ليست إلا خط دفاعنا الأول . ولأن هذه الطرق الأمامية تتلقى عنا الصدمات وتلقى حتفها فى الشرق وهى تذود عنا ، كان هذا بعض السبب فى أن السوفييت لم يستطيعوا أن يُسدلوا ستارهم الحديدى فوق السواحل الفرنسية عند المحيط الأطلسى ، وفى أننا مازلنا يسمح لنا بأن نعيش « فى هذا الجزء المريح من العالم » . فهل من مبدئك الآن أن تدير ظهرك إلى تلك الشعوب ؟ .

لو أن هذا مبدؤك بالفعل لقطع ذلك كل قول . طبيعى أننا ما كنا لننعته بأنه مبدأ رفيع ، بل كنا نصفه بأنه على أية حال مبدأ واضح

لا لبس فيه . ولـكنك فى تلك الحالة تـكون داعية إلى اشتراك طبقات العمال البريطانيين فى أكبر عملية من عمليات الخداع عرفها التاريخ . كلا ! إن مبدأك لا يمـكن أن يكون مبدأ من يقول « سوف أحتفظ بمستواى فى الحياة مادامت شعوب أوروبا محتفظة بمستواها فى الموت » وإلا فما هو الفارق بينك وبين الرأسمالى العتيق الذى لاقلب له ، والذى يحلو لك دائماً أن تلهب ظهره بسياطك ؟ لقد استطاع ذلك الرأسمالى أن يكتنز لحماً وشحماً على حساب شعوب آسيا الجائمة فيما مضى ، وها أنت ذا تحاول الآن أن تـكتنز حرية ورفاهية على حساب عبيد أوروبا الشرقية الجائمين .

التسلح الأمريكى

ثم هناك بعد ذلك التسلح الأمريكى . إن من بيننا أولئك الذين شاهدوا الولايات المتحدة وهى تقف بكبرياء . وقد بعدت بنفسها عن مسرح الأحداث خلال أزمتى منشوريا وأثيوبيا . وإنهم يحسون بكثير من الاطمئنان إذ يرونها الآن بكل ما فيها من قصور — وقد تنبهت إلى الأحداث التى تجرى فى العالم ، مقتنعة كل الاقتناع بأن مشروع مارشال كان له الفضل فى إنقاذ أوروبا بكل ما تؤديه هذه العبارة من معنى إلى حد تعترينا معه الدهشة حين نقرأ إحدى العبارات التى صدرت من أحد زعمائـكم ذات مرة ، إذ يقول عن الأمريكيين « إنهم منهمكون فى أكبر برنامج للتسلح عرفه العالم . وأنا لا أرى لهذا التسلح عقلا ، بل لم يحاول أحد أن يضفى عليه شيئاً من العقل » .

فهل يتمسك حزب العمال بما جاء فى هذه العبارة ؟ هل هذه العبارة تعبر فى إخلاص ، وبعد دراسة مستفيضة ، عن رأيك؟ عن رأيك أنت ، يا من رأيت بعينيك شعوب أوروبا الشرقية وقد انتهكت ، ورأيت حدود بولندا وألمانيا وقد زحزحت عن مكانها غربا ، بقسوة ما كان لدولة أخرى أن ترتكبها إلا أن تكون تلك الدولة هى ألمانيا الهتلرية ، ورأيت ألمانيا الشرقية وقد تحولت إلى دولة من الورق المقوى ، والمجر وقد استنزفت دماؤها حتى بُهت لونها من كثرة ما استنزف من دمائها — أنت يامن طالعت المطبوعات الشيوعيه وتتبعت صحف موسكو ، أنت الذى تتساءل الآن عما يمكن أن يكون فى التسلح الأمريكى من عقل ؟ ثم تشكو بعد ذلك من أن « أحداً من الناس لم يحاول أن يضفى على هذ التسلح شيئا من العقل » ؟

والآن دعنى أبين لك الحكمة من هذا التسلح. وأبدأ أولاً فأقول لك إن هذا التسلح هو الذى أبقاك حتى الآن على قيد الحياة ، ولولا هذا التسلح لا حتلت الشيوعية بأساليبها التى اتبعتها فى براج كلا من إيطاليا وفرنسا ، ثم لا تلبث بعد ذلك أن تصفيكم جميعاً . نعم قد لا تكونون بالضروره فى رأس قائمة ضحاياها ، ولكن دوركم فيها ما كان ليبعد عن ذلك كثيراً .

ولقد تتساءل : لو أن الاتحاد السوفييتى أراد أن يحقق مطامعه عن طريق العمل العسكرى فلماذا انتظر حتى الآن ؟ وماذا قعد به عن تنفيذ ذلك كل ذلك الوقت ؟» . لقد ارتكب الاتحاد السوفييتى حتى الآن اثنى عشر عدواناً ، منذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية ، كل واحد منها كان

كافياً لإثارة حرب أوروبية لو أن الغرب لم يكن منهوك القوى إلى هذا الحد . ولولا مقاومة أهل أوروبا الشرقية ومثابرتهم ، أولئك الذين تريدنا على أن نتخلى عنهم ، ولولا التسلح الأمريكى الذى لا ترى فيه عقلاً ، لظل الاتحاد السوفييتى مستطرداً فى إنشاء إمبرطورية استعمارية لنفسه فى أوروبا .

ثم إن التسلح الأمريكى أمر لاغنى عنه لـكى يكون الغرب فى مركز يستطيع منه أن يتحدث إلى موسكو إطلاقاً . ذلك أن موسكو لا تفهم إلا لغة القوة . فإذا أتيح للغرب أن يقوى ويشتد ساعده ، فهو سوف يكون فى هذه الحالة قادراً على أن يصر على تسوية للخلاف ، ثم تـكون له بعد ذلك فرصة معقولة للحصول على التسوية التى يطلبها ، والحصول عليها دون الالتجاء إلى الحرب . فإن خطر الحرب الوحيد الذى يتهدد الغرب إنما يتأتى من ضعف الغرب نفسه . ومن بين عناصر هذا الضعف إنقسام الرأى فيه نتيجة للفوضى العقلية والحسية التى تسهم أنت فى خلقها .

والصفحات التالية تتضمن جهداً صادقاً لإضفاء بعض النظام على تلك الفوضى .

وإنى لك ياسيدى !

المخلص دائماً

سلفادور دى مادارياجا

أكسفورد فى يناير ١٩٦٠

نسف المعبد

فى يوم ٢٦ سبتمبر من عام ١٦٨٧ سقطت إحدى قنابل البندقية على مخزن تركى للذخيرة فنسفت البارثنون[1] وجملته حطاماً . وهكذا ارتفع الإنسان إلى حيث استطاع أن يتخيل مثل هذا الجمال الرائع وأن يعبرعنه بهذا المعبد الذى أقامه، وهكذا انحدر الإنسان إلى حيث استطاع أن يهدم مثل هذا الجمال ويقضى عليه . ومع ذلك ، ففى حين أن بناء البارثنون قد اقتضى التفكير والإرادة،فإن هدمه لم يكن نتيجة إرادة أو تفكير . لقد كان مجرد حدث وقع . كان البناء عملاً من أعمال الإنسان أما الهدم فكان إحدى حقائق الطبيعة الاجتماعية .

وحضارتنا هى إلى حد كبير نبت أخرجه الإنسان بعد إرادة وتفكير . ولكن الناس قد صنعوا تحت جدران هذا المعبد الكبير — الجيل فى جملته — الذى أقاموه على مدى الأجيال،مخزناً للذخيرة حشدوا فيه القنابل الذرية والهيدروجينية حشداً . وقد يحدث الانفجار الذى يخشاه الناس فى يوم من الأيام . ولن يكون الناس وقتئذ قد أرادوا نسفه ، ولكن هذه السلسلة الطويلة من أعمال الإنسان التى تعارفنا على أن نسميها « التاريخ » سوف تقضى عليها مع ذلك مجرد حقيقة ، مجرد حدث وقع .

فكيف إذن نستطيع أن نحول دون وقوع هذه الكارثة ؟ لنذكر دائماً فى محاولة الإجابة على هذا السؤال ، الفارق الأساسى بين سلسلة

(١) البارثنون Parthenon هو معبد شيده اليونانيون القدماء للآلهة « أثينا » فى القرن الخامس قبل الميلاد على قمة جبل الأكروبول بمدينة أثينا .

الأحداث التى نسميها التاريخ وبين الحقيقة التى نخشاها والتى قد تـكون مصدر هلاكنا . ولـكن أنى لنا أن نفرق بين ما هوعمل وما هوحقيقة؟ إن الحقيقة فيما نحن بصدده لابد أن تـكون فكرة قبل أن تصبح عملا . فإذا حدث شىء ، مجرد حدوث ، فهو لايعدو أن يكون حقيقة لا أكثر أما إذا حدث هذا الشىء لأن الناس أرادوه وفـكروا فيه فهو فى هذه الحالة عمل . إن موروسينى لم يقصد أن ينسف البارثنون . وكذلك الأتراك الذين أخفوا ذخيرتهم فيه لم يقصدوا أن يعرضوه للنسف ، فلقد وقع هذا النسف ، مجرد وقوع ، نتيجة لمزيج من الظروف المفككة ومن العمل الذى يفتقد التفكير ، أو هو كان نتيجة تفكير غير كاف ، كل طرف من طرفى هذا المزيج يسير فى اتجاه مختلف عن الآخر . وكذلك فإن نسف البارثنون الذى يقوم شامخا فوق عالمنا الحديث كله قد يحدث فى أى يوم من الأيام ، بنفس الطريقة التى لا إرادة لنا فيها ولم تـكن ثمرة أى تفـكير .

إن العالم الحر ينجرف فى الوقت الحاضر على غير هدى ، وهو لابد منجرف على غير هدى ما دامت تقوده زعامة تجريبية ، حتى إذا أصبح ترابطه المادى مجرد تعبير تلوكه الألسن ، وأضحى أمراً تافهاً لا وزن له بقى زعماؤه يلتزمون السياسة التي سارعليها بالمرستون بدلاً من أن يرفعوا عقائرهم منادين بالترابط المعنوى الذى فيه خلاص العالم الغربى . لقد كان من العبارات المأثورةعن هذا السياسى الماكر قوله : « ليس لنا أصدقاء وإنما لنا مصالح ، ولا شىء غير مصالح » وهو قول كثيراً ما يقتبسه

الناس فى بريطانيا بكثير من الزهو والإعجاب، بل هو قد يكون كذلك الجوهر الذى تسير عليه سياسة أمريكا ، إذا نحن صدقنا المستر جورج كينان ، أحد الرجال اللامعين فى عرض هذه السياسة .

ومن هنا كانت الدعوة الخاوية إلى الاتحاد التى تتردد كثيراً من جانبى العالم الذى يتكلم الإنجليزية منادية « فلنتحد » كما لو كان الاتحاد سياسة توضع أو تتبع . إن الناس لا يتحدون لمجرد أن يتحدوا ، ومن ثم كانت الدعوة إلى الاتحاد كلاماً لا طائل تحته . وإنما يتحد الناس وهم مشغولون معاً فى تحقيق شىء من الأشياء ، وكوسيلة لتحقيق هذا الشىء « دعنا نذهب إلى العشاء » ، « دعنا ننشىء مصرفاً ! » « دعنا نذهب لصيد الوحوش ! » — هذه كلها دعوات إلى عمل مشترك يؤدى إلى اتحاد من يشتركون فيه طيلة الفترة التي يستمر فيها هذا العمل المشترك . أما أن تقول « فلنتحد ! » فإن ذلك لن يؤدى إلى اتحاد ، لأن الاتحاد ليس هدفاً فى ذاته .

وإن هذه الحالة التى يجتازها العالم الحر، حالة يفتقد فيها الناس الهدف، لهى أخشى ما يخشى ، لأنها تقحم على الموقف ذلك التفكك ، وتلك الأحداث التى لا تنطوى على إرادة أو تفكير مما قد تنجم عنها بسهولة كارثة كتلك التى أدت إلى نسف البارثنون . وإذا كان كل ما يفكر فيه الغرب هو مجرد الدفاع عن النفس فإننا لن نكون فى تلك الحالة إلا أكثر تعرضاً لمجموعة من الظروف قد تؤدى فى نوبة من نوبات الخوف إلى انطلاق الانفجار الذى نخشاه . ألسنا ندرك المثل الذى ينطبق على

هذه الحالة « الهجوم هو خير وسيلة للدفاع »؟ وهكذا لا يلبث بارثدون، العالم أن يتهدم فوق رءوسنا ما دمنا نلتزم خطة الدفاع عن النفس .

والموقف مع ذلك غاية فى البساطة . فلقد أدى تقدم العلوم إلى ربط العالم ببعضه فى حياته المادية ، بل فى حياته المعنوية كذلك ، وجعله عالماً واحداً . وكل ما ينقصنا هو أن ندرك هذه الوحدة . ثم جاء اختراع القنابل الذرية والهيدروجينية فزاد من هذه الوحدة بما صار يتعرض له العالم من وحدة فى الموت . ولهذا فقد حان الوقت الذى يجب علينا فيه أن نعالج شئون العالم بإدراك كامل لوحدتنا . ولقد أدرك زعماء الاتحاد السوفيتى ذلك ، وإن كانوا مع الأسف قد ضلوا سواء السبيل فى تعصبهم الأعمى . فهم ولا شك جد محقين فى أن يعملوا على قيادة العالم كله على أنه عالم واحد ، ولكنهم فى الوقت نفسه جد مخطئين فى أن يحاولوا أن يقودوه إلى ما فيه هلاكه .

أما زعماء الشعوب الانجلوساكسونية فى الغرب فقد عجزوا تماماً عن إدراك وحدة العالم . فهم لا يزالون ينظرون إلى العالم على أنه مجموعة من الأجانب لن تبلغ بهم الفطنة ولن يكون لهم من القدرة ما يغريهم على أن يكونوا أمريكيين أو بريطانيين حسب الحال . طبيعى أن لا بد أن يُعطَى هؤلاء الأجانب النصيحة والمال والمعونة الفنية ، ولا بد من معاونتهم حتى يقفوا على أقدامهم ، ولا بد من تشجيعهم واستحثاثهم ومعاملتهم فى رفق ويسر . لا بد من عمل كل شىء من أجلهم إلا أن يسمح لهم بأن يكونوا أنداداً يقفون موقف المساواة فى عالم يقوم على أسس التعاون

الحق ، فذلك ما لم يستطع زعماء الشعوب الانجلوساكسونية أن يروضوا أنفسهم عليه حتى الآن . إنهم لا يزالون يركضون وقد اعتلوا صهوة فرس « بالمرستون » التي لا ترى ولا تبصر حتى يأتي يوم تدوس بقدمها على الزر الذي يشعل القنبلة الذرية ، فيستيقظوا من سباتهم نادمين يوم لا ينفع الندم وهم يتمثلون بعبارة شكسبير :

آه ياإياجو ! ما أشد رثاءنا !

الحرب الباردة

صفحتها التشريحية

نشأة الحرب الباردة

تطلق عبارة « الحرب الباردة » على الحالة التى لاهى حرب ولا هى سلام ، التى ظل العالم يعيش فى أعطافها منذ أن استسلمت ألمانيا المتلربة. وهذه التسمية ليست مجرد اصطلاح مجازى ، فالحرب فى جوهرها صراع بين إرادات متعارضة قد تعبر عن نفسها بأسلوب العنف ، وقد لا تعبر .

وتمتد جذور الحرب الباردة التى يشهدها العالم فى الوقت الحاضر إلى الحرب العالمية الثانية ، التى لم تكن حرباً بين جانبين ، بل كانت حرباً مثلثة الجوانب ، وقف فيها الغرب ضد كل من « النازية — الفاشية » و « الشيوعية » ، ووقفت فيها « النازية — الفاشية » ضد كل من الشيوعية والغرب ، ووقفت فيها الشيوعية ضد كل من الغرب و« النازية — الفاشية » . كان هذا هو الوضع الأصلى للصراع بين الإرادات المتباينة ، بل هو فى الواقع الوضع الدائم الذى اتخذته الحرب الباردة . ثم تطورت هذه الحرب الباردة بعد ذلك فكانت فى أول الأمر حرباً ساخنة بين النازية — الفاشية وبين الغرب ، وقفت فيها الشيوعية حليفاً « بارداً » للنازية — الفاشية . ثم انقلبت فى مرحلتها الثانية إلى حرب ساخنة بين النازية — الفاشية فى جانب ، وبين الغرب والشيوعية ، وقد تحالفا ضدها ، فى الجانب الآخر .

وما كادت النازية — الفاشية تهزم فى نهاية هذه المرحلة حتى اختفى

الجانب الثالث من المثلث ، وانقلب الصراع إلى تعارض بين إرادتين : وتجلى فى الحرب الباردة التى تقوم فى الوقت الحاضر بين الشيوعية وبين الغرب ، والتى أصبحت اليوم ظاهرة من ظواهر عالمنا الذى نعيش فيه منذ أن أصبح لينين السيد المطاع فى روسيا .

وهكذا يتبين أن الحرب الباردة ليست أمراً غامضاً من آثار الحرب العالمية الثانية نتجت عن التدهور المؤسف فى العلاقات بين موسكو والغرب ، وإن أجهد بعض أعضاء حزب العمال البريطانى — ممن لا أمل فى شفائهم من رقة عاطفتهم — أنفسهم ، وأنفقوا الساعات الطوال يبحثون فى أعماق قلوبهم عن الأسباب التى أدت إلى هذه الوقيعة المحزنة. لماذا ، نعم لماذا تحولت الصداقة الانجليزية الروسية من لبن مصفى إلى لبن زعاق ؟ ثم انهالوا على المحافظين الماكرين يكيلون لهم التهم ويعزون إلى سوء تصرفهم السبب فى هذا الصد بين الصديقين ؟

تخيلوا كيف أن المحافظين بعثوا بسيروليم سترانج ، رجل لا فى العير ولا فى النفير ، إلى موسكو بدلاً من أن يبعثوا إليها بشخصية أرفع مقاماً ، كأن يبعثوا مثلا بوزير من أعضاء الوزارة ! وكيف يمكن لستالين وصحبه أن يحتملوا مثل ذلك وهم على ماهم عليه من حساسية شديدة ؟

ومع ذلك فإن مفتاح هذا اللغز كان فى غاية البساطة، فإن لبن العلاقات بين انجلترا وروسيا ما كان يمكن أن يتحول إلى لبن زعاق ، لا لشىء إلا لأنه لم يكن فى يوم من الأيام غير خل لاذع . ذلك أن روسيا أيا كانت الشخصية التى تتحكم فى مصائرها ، لم تتحول يوماً عن موقف العداوة الذى لا يهون ولا ينى نحو الغرب .

الأطراف المتصارعة : خصمنا

١ — تكتيكات واستراتيجيات

لما كانت الحرب صراعاً بين إرادات مختلفة فإن أى حرب معينة لا يمكن فهمها إلا إذا عرفت أطرافها وحددت الإرادات التى تنطوى عليها . على أن هذا ليس بالأمر السهل فى حالتنا هذه ، فقد يؤدى أسلوب رث فى الحديث ، فى حالات كثيرة ، إلى حجب أكثر المسائل وضوحاً . فكم سمعنا من نداءات عاطفية بوقف الحرب الباردة على أساس « الصداقة مع الشعب الروسى » ، كما لو كان عدو الغرب فى هذه الحرب الباردة هو الشعب الروسى نفسه ، ذلك الشعب الذى يميل أكثر ما يميل إلى أن يكون حليفنا فى واقع الأمر . ولذلك يجب أن نذكر بوضوح ، بادىء ذى بدء ، أن عدونا فى الحرب ليس هو « روسيا » ولكنه الحزب الشيوعى . فلو أن الحزب الشيوعى لم يكن له وجود لما كانت هناك حرب باردة اليوم . أما السبب فى أن حزباً سياسياً بمفرده قد استطاع أن يجعل السلم العالمى معلقاً فى كفتى القدر ، فهو أن ذلك الحزب استطاع فى عهد لينين أن يقبض بيديه على مصادر الثروة الواسعة فى روسيا ، وأن هذا الحزب بمهارته الدبلوماسية وضعف الغرب وغرارته ، قد استطاع أن يتلقف نصف أوربا بين يديه ، وأن عجز الصينيين الوطنيين وعدم كفايتهم قد مكن له من أن يبسط سلطانه على

الصين . وتبقى بعد ذلك الحقيقة الثابتة ، وهى أن خصم الغرب الحقيق هو الحزب الشيوعى .

وإذن فماذا يريد هـذا الحزب الشيوعى ؟ ما هى استراتيجيته السياسية ؟ إنه « سَفْيَتَةُ » العالم جميعاً ، أى صبغه بالصبغة السوفييتية . هذه هى النقطة الأساسية فى الموقف جميعاً . فالشيوعية نظرية شمولية ، ولن يكون لها معنى إلا إذا هى طُبقت على العالم بأجمعه ، وقد عبر عن ذلك كل من ستالين ولينين ، كل بطريقته التى اختلفت حسب مزاجه وحسب الظِروف التى سادت العالم فى عهده . قال ستالين :

« إن الاستراتيجية هى تحديد الاتجاه الذى تهب منه البروليتاريا فى مرحلة معينة من مراحل الثورة ، ووضع خطة مقابلة لتنظيم القوى الثورية (الأساسية والاحتياطية) ، ثم الصراع من أجل تحقيق هذه الخطة طوال المرحلة المعينة . وقد مرت ثورتنا بالفعل عبر مرحلتين ، ودخلت بعد ثورة اكتوبر مرحلة ثالثة ، وقد تغيرت استراتيجيتنا تبعاً لذلك . المرحلة الأولى : ١٩٠٣ إلى فبراير ١٩١٧ . . . المرحلة الثانية : مارس ١٩١٧ إلى اكتوبر ١٩١٧ . . . المرحلة الثالثة : بدأت بعد ثورة اكتوبر . الهدف : دعم دكتاتورية البروليتاريا فى البلاد مع استخدامها قاعدة للقضاء على الإمبريالية فى العالم كله . إن الثورة تنتشر فيما وراء حدود دولة واحدة بالذات ، فلقد بدأ عصر الثورة العالمية . أما القوات الرئيسية لهذه الثورة فهى : دكتاتورية البروليتاريا فى بلد من البلاد ،

والحركة الثورية للبروليتاريا فى جميع البلاد . أما الاحتياطى الرئيسى فيتألف من الجماهير شبه البروليتارية ومن صغار الفلاحين فى الدول المتقدمة ، ومن الحركات التحررية فى المستعمرات وفى الدول التوابع . أما عن توجيه الضربة الرئيسية : فيكون عن طريق عزل الديمقراطيين من صغار البرجوازيين وعزل أحزاب الدولية الثانية التى تؤلف العضد الرئيسى لسياسة المهادنة مع الإمبريالية .

وأما تنظيم القوات : فيتأتى عن طريق تحالف الثورة البروليتارية مع الحركات التحررية فى المستعمرات وفى الدول التوابع . فالاستراتيجية تتولى تصريف القوات الرئيسية للثورة كما تتولى تصريف قواتها الاحتياطية ، وتتغير تبعاً لانتقال الثورة من مرحلة إلى مرحلة أخرى ، ولكنها تظل ثابتة فى أسسها لا تتغير طوال مرحلة معينة بذاتها»[1] .

أما عن لينين فهذا ما كان لديه ليقوله فى نهاية الحرب العالمية الأولى:

« قلت إننا قد مررنا مؤخراً من مرحلة الحرب إلى مرحلة السلام ، وإننا مع ذلك لم ننس أن الحرب ستعود مرة أخرى ، إذ لا سبيل لنا إلى العيش فى سلام طالما أن الرأسمالية والاشتراكية باقيتان جنباً إلى جنب إذ لا بد فى النهاية من أن تنتصر إحداها على الأخرى ، فيرتل النشيد الجنائزى إما على قبر الجمهورية السوفيتية وإما على قبر الرأسمالية العالمية .

---

(١) ستالين : « مشكلات اللينينية » ١٩٤٧ — الطبعة الانجليزية صفحات ٦٨ — ٧٠ .

إننا إنما نستمتع الآن بمهلة من الحرب ولا بد للرأسمالية من أن تجد ذريعة تتملل بها لشن نار الحرب مرة أخرى ...»[1]

وإن مقارنة هذين النصين ببعضهما لتبرز لنا أهم مظهر من الحرب الباردة من وجهة النظر الشيوعية . إستراتيجية متزمتة لا تتغير ، وتكتيك مرن طيع . وهكذا نرى لينين يصر على الحرب الساخنة ، بينما ستالين يشرح أساليب الحرب الباردة ، ويصف فن التكتيك الشيوعى على النحو التالى :

« التكتيك هو تحديد مسلك البروليتاريا فى الفترة القصيرة نسبيا التى يستغرقها مد الحركة أو جزرها ، ارتفاع الثورة أو هبوطها ، والكفاح من أجل تحقيق هذا المسلك عن طريق إبدال الأوضاع والنظم القديمة بأوضاع ونظم مستحدثة وإحلال الشعارات الجديدة محل الشعارات القديمة . . . والتكتيك هو جزء من الاستراتيجية يخضع لها ويخدم أغراضها . . .والتكتيك يتغير ويتبدل تبعا للمد والجزر ... إنه يختص بأوضاع كفاح البروليتاريا وأشكال تنظيمها وبما يطرأ عليها من تغييرات وتجمعات . وقد يتغير التكتيك فى مرحلة معينة من مراحل الثورة عدة مرات ... »[2]

وهذا الجمع بين الاستراتيجية الجامدة وبين التكتيكات الماهرة

---

(١) لينين : « خطاب فى سكرتيرى نوايات حزب موسكو » ١٩٢٠ : مؤلفات لينين المجلد الخامس والعشرون — صفحة ٥١٢ من الطبعة الروسية الثالثة عام ١٩٣٥ .

(٢) ستالين « مشكلات اللينينية » ١٩٤٧ : الطبعة الانجليزية صفحة ٧٠ .

يتولاه نظام حكومى مركز كل التركيز يهيىء لدائرة ضيقة من الزعماء — من بين ماله من فوائد عديدة أخرى — أن يمدوا خططهم فى سرية تامة ، وأن يغيروها متى شاءوا ، ويعرضوها على الرأى العام فى بلادهم بالطريقة التى يرونها . ولما كانت المناقشات محرمة وتسرب هذه الخطط ضئيلا — هذا إذا تسربت بالمرة — فإن من شأن ذلك أن يجعل استراتيجية الحزب وتكتيكاته قادرة على الوصول إلى درجة عالية من الدقة والكفاية .

لقد قيل الكثير فى بعض الأحيان عن المهادنة والتخفيف من حدة التوتر منذ أن خلف خروشوف لينين وستالين ، وإنه لقول يقوم على الوهم الخالص ، بل إن القيصر الأحمر الثالث لهو أشد خطورة من سابقيه ، فلقد استطاع أن يكسو يد الشيوعية الحديدية بقفاز التعايش السلمى الذى نسجت خيوطه من الحرير الجذاب . أما حين تجذبه الأحداث أو الظروف إلى خضم الواقع المجرد (بوادبست والاعتراف بألمانيا الشرقية) فإن اليد الحديدية لا تلبث أن تنفذ من خلال هذا القفاز الحريرى . والواقع أن ظهور خروشوف لم يعن أكثر من ازدياد الموقف حدة . فتكتيكه أكثر مرونة ومهارة ودهاء . أما استراتيجيته فهى فى ترمتها مثل استراتيجية سابقيه .

٢ — الإمبريالية الروسية

ولقد ظل هذا التجرد من كل ازدواج فى أهداف الحزب الشيوعى

وأساليبه موضع الجدل من اتجاهين مختلفين : الإمبريالية الروسية ، و « التيتووية الصينية » . فلقد دفعت « الإمبريالية الروسية » إلى عقول بعض المؤرخين المشتغلين بدراسة التاريخ الروسي ذكريات كاترين العظمى واسكندر الأول ، إذ يشاء الأمر الواقع أن تخضع روسيا لسلطانها فى الوقت الحاضر من أجزاء أوربا ما لم يتح لها من قبل ، وألا تعرف الشعوب الأوربية التى وطئها « الروس » بأقدامهم فى تاريخها كله عهداً أكثر استغلالاً لمواردها فى غير هوادة ولا رحمة بما هم فيه . وإن استخدام أفظع الأساليب الرأسمالية وأرذلها فى غير اهتمام ولا اكتراث فى امتصاص دماء أوربا الشرقية لمنفعة الروس مضافاً إليه الإجراءات البشعة التى اتبعت لصبغ ولايات البلطيق بصبغة روسية ليبدو مبرراً لأولئك الذين يرفضون أن يسلموا بأن الشيوعية هى السبب الرئيسى فى التوسع الروسى ، ويرون فى هذا التوسع استمراراً لنزعة الشعب الروسى القديمة انعكست الآن فى القرن العشرين فى صورة شيوعية .

على أن الحقائق مع ذلك لا تساند مثل هذا التفسير . فأما أن محاولة صبغ بعض الدول المجاورة بالصبغة الروسية ، مثل ولايات البلطيق وبعض جهات قليلة من بولندا ورومانيا ، كانت قائمة فيما مضى ، فهذا مالا شك فيه . وكذلك استغلال شعوب أوربا الشرقية استغلالاً منظماً ، فهو حقيقة لها ما يؤكدها من البحث والدراسة ، ولكن هاتين الظاهرتين من مسلك السوفيت الخارجى مع ذلك يمكن تفسيرها دون الاستعانة بعنصر القومية الروسية ، وإن كانت الدوافع التاريخية والغرائز يمكن ،

ما دامت طبيعة البشر على ماهى عليه ، أن تكون قد فعلت فعلها فى هذا الزعيم السوفييتى أو ذاك ، فأضفت على حوافز التوسع السوفييتى نكهة قومية تقويها وتشد من أزرها .

إن الشيوعية إذا اتخذت لنفسها عقيدة من العقائد فلن يكون فى مكنة زعماء السوفيت أن يظلوا غير مكترثين بالحقيقة الأساسية فى الموقف كله، وهى أن الحزب الشيوعى يسيطر على موارد روسيا العظيمة ، الجغرافية والسياسية . وهذه الحقيقة معناها أن مصالح الحزب الشيوعى ومصالح روسيا ستظل الآن ، وإلى فترة طويلة ، متطابقة كل التطابق ، وإن كان هذا لا يقلل إطلاقا من الاتجاه العالمى للحزب الشيوعى ، كما يدل على ذلك من غير شك أن الشيوعيين فى جميع أرجاء العالم على استعداد ، مهما اختلفت جنسياتهم ، للعمل فى غير هوادة من أجل مصلحة روسيا . وهو وضع له شبيهه فى التاريخ ، حين كان الكاثوليك فى اسكتلندا مستعدين للعمل فى صف فيليب الثانى . وإذا كانت حالة تيتو تعد استثناء فهو الاستثناء الذى يثبت صحة القاعدة .

ومن هنا تتضح حقيقة الوضع فى ضم الأراضى البولندية وأراضى البلطيق والأراضى الرومانية ، فهى كلها جهود تستهدف دعم روسيا الأم الشيوعية . وكذلك استغلال شعوب أوربا الشرقية ، فهو لا ينطوى بحال من الأحوال على أية خيانة لاستراتيجية الاتحاد السوفييتى ، إذ من الممكن تفسيرها على أنها إجراء تكتيكى قصد منه (وإن لم يكن مبرءاً من التشكك فيما ينطوى عليه من مغامرة) ضمان الاستقرار عند

القاعدة ، وهى هنا مرة أخرى روسيا الأم الشيوعية — هذا بينما بركات الثورة تتهادى وتتمهل وجهاز الحرب (الجيش للأجانب والشرطة للوطنيين) يُبنى ويُجدد لـكى يظل متمشيا مع أحدث التنظيمات .

٣ — التيتووية الصينية

وهذا هو أحد الأوهام الغريبة التى تتفشى فى بعض قطاعات الرأى العام فى العالم الحر ، ولاسيما فى بريطانيا وبصفة خاصة فى دوائر حزب العمال ، فلقد كان من بين الألغاز التى حيرت تفـكير العمال هذا السؤال : لماذا فضل شيوعيو الصين المستر هارولد ولسون على الرفيق ميكويان ؟ فأما أن الصين لا تنوى أن تـكون دولة تابعة كالمجر أو رومانيا فهى نبوءة لا تحتاج إلى إلهام ربانى. وأما أن يجد زعماء بينج وموسكو مناقشاتهم عقيمة غير مثمرة وخلافاتهم مستعصية على الرفق إلى حد أن تفضل الصين عدد الآلات الأمريكية على عدد الآلات الروسية فهو فى الواقع أمر يتنافى مع طبيعة الأشياء . وما كان للاتحاد السوفيتى إلا أن يترك الصين فى كثير من البهجة المصطنعة ، وهو ولا شك تاركها ، تتولى النشاط الشيوعى فى معظم أجزاء آسيا ، فإذا نجحت الصين فى طرد الأمريكيين والأوربيين من تلك القارة كان الاتحاد السوفيتى طرفاً رابحاً بقدر ما تـكون الصين نفسها . والصين بعد ذلك أفقر من أن تصبح دولة صناعية كبرى فى القريب . ثم إن عدد الفنيين فيها أقل مما تحتاج إليه ، ومن ثم فهى تظل فى هذه الناحية ، ولفترة طويلة فى حاجة إلى معونة حليفتها التى تفوقها

نسبياً فى هذا المضمار . وهل يعقل أن ننتظر من الصين أن تسعى إلى المعونة من شعب كشعب الولايات المتحدة يبعد عنها من الناحية الجغرافية والمذهبية كل هذا البعد ، بينما هى تستطيع أن تحصل على ذلك من حليفتها القريبة منها ؟

على أن هناك صورة أخرى تبرز من ثنايا الملاحظات الحديثة : تلك هى صورة اتحاد سوفيتى يخشى الصين إلى حد طلب العون من الغرب، وهو خوف يستند إلى أن عدد سكان الصين يزداد بمعدل ٢٠ مليوناً كل عام ، بينما عدد سكان الاتحاد السوفيتى ينزع إلى الركود ، مما قد يدفع الصين إلى غزو الجهات الخالية فى سيبريا فتضطر روسيا ، مدفوعة برغبتها فى الدفاع عن نفسها ، إلى طلب الغرب ، أو على الأقل إلى طلب الضمانات التى تكفل لها السلم فى الأجزاء القريبة من أراضيها .

ويبدو أن هذا الصراع بين روسيا والصين سيكون صراعاً طويل المدى ، يرتكز على ظواهر مائعة كالتغيرات التى تطرأ على الشعبين من حيث إحصاءات السكان ، بل قد يرتكز كذلك على التقليل من إمكانيات الاتفاق بينهما الذى كثيراً ما يؤدى إليه مثل هذ الصراع بين شعوب « واقعية » كالشيوعيين الصين والروس . وما من شك فى أن عدد سكان الصين الضخم شىء يلفت النظر . ومع ذلك فإن ٧٠٠ مليون من الأنفس إذا كانوا ميزة ، فهم فى الوقت نفسه تبعة كبرى . فإن المشاغل الداخلية لهذا العدد الهائل من شأنها أن تشغلهم عن المجازفة بعيداً فى مشروعات خطيرة فى الخارج . وأياً كان الأمر فحتى

لو تقبلنا الصورة الكاملة على علاتها ، صورة العداء بين الكتلتين الشيوعيتين الكبيرتين ، فإن من شأن ذلك أن يزيد سبباً آخر إلى الأسباب التى تحمل العالم الحر على رفع ثمن اتفاقه مع موسكو ، وهو الثمن الذى يتعين على موسكو أن تدفعه فى مقابل استمتاعها بسلم حقيقى دائم .

ومما لا شك فيه أن الصين كلما سارت فى مدارج التقدم أصبحت أكثر إدراكاً لوضعها وأهميتها ، ومن ثم كان من المحتمل أن يشد كل من الشريكين الحبل فى غير يسر فى اتجاهين مختلفين عن بعضهما قليلا . بل لقد لحظ العالم بالفعل بعض الكلمات المتنافرة وبعض الحركات المتعارضة بينهما بشأن الهند ، وبشأن يوجوسلافيا ، وبشأن بولندا ، كما أظهرت موسكو بين الفينة والفينة عدم رضائها ، أو على الأقل أظهرت فتوراً ، بإزاء بعض المغامرات الصينية ولا سيما اعتداءاتها على الحدود الهندية . ومع ذلك فهل يمكن أن يتخيل أحد من الناس أن مثل هذه الاختلافات ، على صحتها وجسامتها ، يمكن أن تفرق بين الاتحاد السوفيتى والصين بأكثر مما فرقت بعض الخلافات بين بريطانيا والولايات المتحدة ، هاتين الدولتين الأنجلو ساكسونيتين عن بعضهما ؟

وتبرز من كل ذلك نتيجة واضحة : وهى أن العداء بين الشيوعيين والعالم الحر مصدره الشيوعيون أنفسهم ، وأن هذا العداء لم ينجم عن أى عمل صدر من جانب العالم الحر ، بل نجم من ظروف هذا العالم الحر وأحواله فالعالم الشيوعى قد نصب نفسه للقضاء على العالم الحر بوصفه عالماً حراً ،

وكرس جهوده « لدفنه » على حد تعبير خروشوف لأنه عالم غير شيوعى ومن ثم فهو (من وجهة النظر الشيوعية) عالم مناهض للشيوعية . ولهذا فإن من العبث الذى لا طائل تحته من جانبنا أن نحاول عمل شىء للاتفاق مع العالم الشيوعى ، إذ أياً كان العمل الذى نعمله فسنظل فى نظر هذا العالم كما كنا ، لم نتغير ولم نتحول . ومن أقصى ما نستطيع أن نحققه هو أن نعقد اتفاقاً من وقت إلى الآخر محدوداً فى مكانه وزمانه كلما آنس العالم الشيوعى فى نفسه أن مثل هذا الاتفاق يفيده من الناحية التكتيكية ويهيىء له مزايا من الفرص لكى يحرز نصراً استراتيجياً ، وبعبارة أخرى نصراً يتيح له فرصاً أوسع لتحطيم العالم الحر . والحرب الباردة لاهدف لها بالنسبة للعالم الشيوعى إلا تحطيمه .

التماثل وحدود الصراع

١ — محورا الارتكاز

فى مقابلة بين أول وفد عمالى أمريكى إلى موسكو وبين ستالين نفَّس ستالين عن نفسه بالنبوءة التالية :

« فى خلال التطور المقبل للثورة الدولية سوف ينشأ مركزان عالميان تلقائياً : المركز الاشتراكى الذى يجتذب إليه الدول التى تنزع إلى الإشتراكية ، والمركز الرأسمالى الذى تجتذب إليه الدول التى تنزع إلى الرأسمالية . والصراع بين هذين المركزين من أجل السيطرة على اقتصاديات العالم هو الذى سوف يحدد مصير الرأسمالية أو الاشتراكية فى العالم كله . ذلك أن هزيمة الرأسمالية العالمية نهائياً معناها انتصار الاشتراكية فى مجال الاقتصاد العالمى »[1] .

هذان المركزان او المحوران هما إذن اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية والولايات المتحدة الأمريكية ، أى موسكو وواشنجتون . ولكن هذا التماثل الذى لاشك فيه بين جوانب الصورة النهائية لا ينبغى

---

(١) ستالين «مقابلة مع أول وفد عمالى أمريكى لروسيا» ١٩٢٧ — مؤلفات ستالين المجلد العاشر صفحات ١٢٢ — ١٢٣ — موسكو ١٩٤٩ .

أن يطمس على أعيننا فلا نرى الفارق الـكبير فى العمليات التى أدت إلى تـكوين هذه الصورة . فلقد تم تجميع الدول حول موسكو بالقوة البحتة ، كما ظل هذا التجميع محتفظا بكيانه بمعاونة جميع الأسلحة التى يمـكن أن توجد فى ترسانة الاستبداد والطغيان ، من كتائب الجيش الأحمر ، إلى البوليس السرى ، إلى الصحافة المـكممة ، إلى معسكرات الاعتقال ، وإلى غير هذا وذاك . أما تجمع الدول حول واشنجتون فقد كان تلقائياً، وهو لابد منحل فى الغـد لو اختفى الخطر السوفيتى من الأفق . وهكذا فإن قوة موسكو الفعلية هى أن تبقى على ترابط المجموعة الشرقية ، كما أن خطر موسكو هو الذى يبقى على ترابط المجموعة الغربية . وهذا هو أول العناصر التى تفسد تماثل الصورة . أما العنصر الثانى فهو أنه بينما يسمح للحزب الشيوعى بأن يباشر نشاطه فى العالم الحر فإن الأحزاب غير الشيوعية يحرم عليها بالمرة التسلل إلى العالم الشيوعى . صحيح أن قدراً محدوداً من المؤثرات غير الشيوعية تنتقل من خلال الستار الحديدى أو من فوقه ، ولا سيما عن طريق الإذاعات اللاسلـكية ، ولـكن هذه المؤثرات لا تزيد على أن تـكون قطرة بسيطة إذا قيست بمـا يسمح للحزب الشيوعى بمزاولته فى عالمنا .

وإنها لحقيقة تسترعى النظر تلك التى ذكرناها ، ولا يمـكن أن يكون لها تفسير إلا ذلك الاضطراب الذى يعم الحزب كله فيما يتصل بالخصم الحقيقى فى الحرب الباردة . فلو أن الرجل الغربى أدرك أن خصمه فى هذه الحرب ليس روسيا وإنما هو الحزب الشيوعى ، لـكان خليقاً

به أن يستيقظ إلى جسامة الخطر الذى يتهدده من جراء السماح لأعدائه بالاستمتاع بهذا القدر من الحرية داخل قلعته.

وثمة عنصر ثالث يؤدى إلى افتقاد التماثل بين العالمين الشيوعى والحر . فبينما العالم الشيوعى مركز كل التركيز ، فإن العالم الحر لا يرتبط ببعضه إلا برباط مفكك . والتركيز فى العالم الشيوعى على نوعين : فكل شعب من الشعوب الداخلة فى نطاق هذا العالم زمامه فى قبضة حكومته التى تُطبق عليه بكل قوتها ، وكذلك كل حكومة من هذه الحكومات يطبق الاتحاد السوفيتى عليها بكلتا يديه . ويستمد هذا الجهاز تماسكه كله من الحزب الشيوعى الذى يشرف على تلك الحكومات بما فيها حكومة موسكو مع ما يستتبعه ذلك من مزايا ثلاث : التواصل والنظام ، والسرية .

وعلى عكس كل ذلك تجرى الأمور فى العالم الغربى . فهو عالم يعيش فى نزاع مستمر فى داخل كل شعب من جهة وبين الشعوب التى تتألف منها هذه المجموعة من جهة أخرى . ففى كل شعب من هذه الشعوب نجد الرأى العام نفسه فى حيرة من النغمات المتنافرة التى يسمعها تتردد فى آفاقه نتيجة لأساليب التفكير الحزبى . أما بين شعب وشعب آخر فالتوتر لا يكاد ينقطع لأن كل شعب منها ينظر إلى الأمور بطريقته الخاصة ، ثم هو بعد ذلك — على خلاف نظرائه من شعوب العالم الشيوعى — يملك من السلطة ما يسمح له بالانحراف بنفسه عن الشعب الذى يقوم مقام المحور المركزى فى العالم الحر . ومن أثر هذا الموقف أنه يجعل

صورتنا أشد تعقيداً ، وأكثر تغيراً ، وأقل استقراراً من صورة خصمنا ، ويحرمنا من المزايا الثلاث التي له — التواصل ، والنظام ، والسرية .

ومن الواضح ، فيما يتعلق بنا ، أن الفوارق بيننا وبين الشيوعيين في السلوك السيكولوجي ، وفي التقاليد التاريخية ، وفي نظرتنا السياسية إلى الأمور ، تؤثر في الحرب الباردة بطريقة لم يسمع بها أحد عن العالم الشيوعي ، ومن شأنها أن تتفرع منها أعضاء من براعم وتنبثق منها اتجاهات ورغبات سياسية يتحول إليها النشاط تارة في هذا الاتجاه ، وتارة في ذاك ، فينحرف بذلك عن تحقيق الهدف الرئيسي . ومن ثم فإن هذه الفوارق تكاد تكون دائماً في مصلحة الشيوعيين بما تؤدي إليه من انقسامنا على أنفسنا . على أن الوضع ليس بهذه الصورة دائماً ، ويقتضينا الواجب هنا أن نسجل هذا القدر ، وهو أن مجرد كبت هذه الفوارق والتوترات في العالم الشيوعي والحيلولة بينها وبين الظهور على الملأ يولد في النفوس شكوكاً مخيفة عما عساه يحدث هناك في أية أزمة تتصل بالحياة أو الموت . وهي ناحية تعمل بطبيعتها في جانب السلام لأنها تكبح جماح روسيا من أن تشن على الغرب حرباً .

٢ — العالم الحر

على أن أخطر الفوارق بين هذين العالمين ، هو أن للعالم الشيوعي هدفاً ثابتاً ، بينما نحن نفتقد مثل هذا الهدف . وقد تبدو هذه العبارة

قاسية ولكنها العبارة الوحيدة التي تعبر عن حقيقة الوضع . لقد قيل إن الهدف الوحيد المشترك بين العالم الحر كله هو الدفاع عن النفس ، أو بعبارة أخرى ، حب البقاء ، غير أن حب البقاء ليس هدفاً فى ذاته ، اللهم إلا بالنسبة للجرذان والنمور . أما الكائنات البشرية فيجب أن تجاهد من أجل هدف يجعل هذا البقاء جديراً بأن يبقى الإنسان من أجله ، وهو ما يعنيه فى واقع الأمر أولئك الذين يتخيلون أن هدفهم الوحيد هو الدفاع عن النفس فهم حين يفترضون أن كثيراً من الكائنات البشرية يجب أن يضحى بها من أجل تحقيق هدفها إنما يعنون ضمناً أن هذا الهدف لا يمكن أن يكون مجرد البقاء الفردى ، بل هو بقاء حضارتنا وثقافتنا . وهذه النتيجة تفتح أمامنا سيلاً واسماً من الأسئلة والافتراضات . إذ ماهى على وجه التحديد هذه الحضارة وهذه الثقافة التى يجب أن نجازف بحياتنا فى سبيل الدفاع عنها ؟ وما هى أوجه الخلاف بينها وبين حضارة أعدائهم المستميتين ؟

والجواب الذى يخطر على البال لأول وهلة يمكن أن نتبينه من المسلك الرسمى الذى يسلكه أعداؤنا ، ومن العبارات التى تصدر عنهم فى الصراع الذى لا يفتئون يرددونه من خلال أبواقهم ، هو فى قولهم « صراع بين الشيوعية والرأسمالية » ، وهو بالطبع كلام ينطوى على هذر لامعنى له ، ثم هو بعد ذلك يستند إلى حجج قديمة فى طرازها قدم لحيتى إنجلز وماركس . فالاشتراكية قد شقت طريقها إلى جميع مناحى الحياة الحرة حتى لم يعد حزب واحد فيها لم يتأثر بها ، بينما الرأسمالية فى

فى أسوأ صورها قد تفشت فى جميع البلاد التى تستغلها روسيا . أكثر من ذلك أن الاشتراكيين فى معظم الدول الغربية ، من كان منهم ذا ميول ماركسية ومن كان منهم ذا ميول غير ماركسية ، هم من بين أكثر الناس عداوة لموسكو وأشدهم فى ذلك أثراً . وهكذا يبين أن هذا الشعار الذى لا يفتأ يمنيه أعداؤنا عن طبيعة الصراع بين الشيوعية والرأسمالية يتجافى مع الحقيقة ، وسنرى على التو ما كان لهذا الشعار من أثر كبير على الحرب الباردة .

وثمة كلمة أخرى تبرز إلى الأمام فى دعايات السوفييت من الكلمات التى تنتهى بحرف « ية » كما تنتهى بهما كلتا الشيوعية والرأسمالية . تلك هى الأمبريالية الأمريكية (والبريطانية كذلك إذا ما وافق ذلك هواهم) . وكل ما نحن فى حاجة إليه فى هذا الصدد هو أن نستعيد بعض الحقائق التى تسلب السوفييت كل حق فى إثارة موضوع الإمبريالية . فليس فى التاريخ كله مثل واحد على الأمبريالية يمكن أن يجارى فى سرعته ، وفى غدره ووحشيته ، وفى نزواته وشهواته ، ما قام به الاتحاد السوفيتى من ضم أوربا الشرقية إليه . وأنه فى الواقع لدليل ثابت على غرارة جمهرة الناس فى أوربا الغربية ، وبرهان على سذاجتهم التى ليس بعدها سذاجة ، أن يجرؤ زعماء السوفييت على التحدث على مسمع منهم عن الأمبريالية الأمريكية ، وأن يكون حديثهم عنها من وراء حاجز من الشعوب المستعبدة التى ضُربت عليها الذلة والمسكنة .

وإن هذا الاتهام ليبدو أكثر بشاعة فى ضوء التناقض الشديد

بين جشع الاتحاد السوفيتي العسكري والاقتصادي وبين كرم الولايات المتحدة وأريحيتها . فبينما كان الاتحاد السوفيتي يثبّت حذاء الاحتلال بعنف فوق رقاب نصف شعوب أوربا . كان جيش الجنرال أيزنهاور — ولعل هذه هي أكبر غلطة ارتكبها الغرب تثير الرثاء — يذوب في لحظة من لحظات شهر العسل هياماً بأولئك « الروس الأصدقاء » . كذلك بينما كان الاتحاد السوفيتي يضع الخطط لتنظيم استغلال شعوب أوربا الشرقية استغلالاً لا شفقة فيه ولا رحمة ، كانت الولايات المتحدة ، عن طريق مشروع مارشال ، تعطى العالم أروع مثل على بعد النظر السياسى وعلى السخاء الاقتصادى الذى لم يعرف مثله التاريخ . ثم لا يجمل بنا أن ننسى هنا أن مشروع مارشال كان يتسع للاتحاد السوفيتي نفسه ، وأن هذا الاتحاد رغب في أن يفيد منه . ومن ثم فإن من حقنا في هذه الظروف ، ودون أن يؤثر ذلك فيما قد نحب من جانبنا أن نقوله في هذا الصدد فيما بعد ، أن نخلص إلى أن ادعاء الاتحاد السوفيتي بأنه يجاهد من أجل تخليص العالم من الأمبريالية الأمريكية هو هراء سخيف لا يجوز إلا على البسطاء وذوى العقول الفجة .

٣ — الحرية . . أم . . القوة

والآن فما هو ذلك الشيء الذى يجعل من حضارتنا وثقافتنا أمرين جديرين بالكفاح من أجلهما ؟ ما هي تلك النغمة التى تعتقد جميع شعوب العالم الحر — جمهوريات وملكيات — ويشعر جميع رجالها

— محافظين وأحراراً واشتراكيين — بأنها كنزهم الثمين الذى يذودون عنه بأرواحهم ؟ والجواب على ذلك هو : أنها الحرية . وفى هذا يكمن الخلاف الحقيقى ، ويبين لب الموضوع : الحرية ضد القوة . فى العالم الشيوعى تتغلغل القوة من قمة الدولة إلى مادونها باعتبارها العنصر الفاصل فى كل الأمور. أما فى الغرب فإننا نؤمن بأن الحرية هى الفيصل الأكبر ذلك أننا نؤمن بأن الحرية هى القوة الكامنة فى كل فرد أو جماعة من الأفراد ، والهبة الموجودة فيهم التى تؤهلهم لأن يقرروا رأيهم فى المسائل الهامة التى تمس مصير الفرد أو مصائر الجماعة . ويستتبع ذلك أن العالم الحر لا يكون ، ولا يمكن أن يكون ، بناء صارماً يتألف من طبقات من الأوتوقراطيات بعضها فوق بعض درجات ، بل هو اجتماع حر ،وسيظل دائما اجتماعاً حراً ، يتألف من شعوب حرة عدتها مواطنون أحرار . (يجب أن تفهم هذه العبارة على أنها هدف أكثر منها حقيقة واقعة) . وإن هذه الحرية لهى المعدن الذى يتكون منه جوهر قضية الغرب .

ومن ثم فإن قضيتنا بطبيعتها لا تقل شمولية فى نطاقها عن قضية الشيوعية : وإذا كانت الشيوعية تبغى « سفيتة » العالم كله فإن جوهر قضيتنا هو الحرية لجميع الأفراد وجميع الشعوب . ولكن لماذا لجميع الأفراد وجميع الشعوب ؟ لأن الحرية ، إذا كان لنا أن نقتبس عبارة ليتفينوف الشهيرة ، كل لا يتجزأ . وإن كل رجل له عينان مبصرتان لا بد أن يرى الآثار المدمرة التى تترتب على سياسة السماح للطغيان بأن يعشش فى أى جزء من أجزاء العالم ، ذلك لأن الاستبداد ظاهرة معدية.

تنتقل عدواها من السقيم إلى السليم . على أن العالم اليوم هو من ناحية الحرية قد تأخر مائة سنة على الأقل عما كان عليه ما بين ١٨٧٠ ، ١٩١٤ حين كان أشد الأحزاب رجعية فى أوروبا ، باستثناء روسيا وحدها ، يأبى أن يقر احتجاز أحد من المواطنين لأكثر من اثنين وسبعين ساعة دون إذن من القاضى . ولذلك فليس ثمة ما يخشاه الغرب على قضيته من أن تكون أقل قبولاً لدى الناس من دعوة الحزب الشيوعى إذا عرف الغرب كيف يعرض قضيته . ولكنه مع الأسف أبعد ما يكون عن أن يعرف كيف يعرضها .

وأول أثر يترتب على الاستجابة لقضية الغرب هو القضاء على تلك الصورة المضللة : صورة الستار الحديدى . فلقد نجحت هذه الصورة عن جدارة واستحقاق فى وصف الحصار الشخصى والثقافى الذى فرضه الحزب الشيوعى على العالم الخاضع لسلطانه غير أن هذه الصورة تفترض من ناحية أخرى أن الخط الأمامى فى الحرب الباردة يجرى فى اتجاه رأسى ، على حين أنه فى واقع الأمر يخترق العالم الشيوعى فى اتجاه أفقى ، مما يجعل حلفاءنا فى جميع أرجاء أوربا الشرقية ، بما فى ذلك روسيا نفسها ، هم الشعوب التى تقع تحت الخط ، وأعداءنا هى الحكومات التى تقع فوقه . وهى ظاهرة أخرى تعزز قضية الغرب وقضية السلام ، فإن زعماء الشيوعية لا يستطيعون أن يجازفوا بشن حرب مادامت الشعوب التى يضطهدونها هى عدوهم المقيم .

ولهذا فإن مركز الغرب فى هذه الحرب الباردة هو مركز قوى كل القوة

وكل ماعلى الغرب أن يفعله هو أن يعبر عن هدفه من هذه الحرب الباردة في صوت مدوٍ رنان معلناً : الحرية للجميع ، الحرية في مبناها المفرد .. فلقد أدى روزفلت خدمة ضئيلة للعالم الحر حين قسم الحرية إلى حريات متعددة ، ثم أدى له خدمة أشد ضئالة حين ربط هذه الحريات بحروف جر مختلفة ، ففرق بين الحرية « لـ . . » والحرية « من » إن ما يجب على العالم الحر أن يحتفظ به ماثلاً أمامه في وضوح لالبس فيه ، هو أن حضارته وثقافته تتوقفان على هذا المبدأ وحده : الحرية أولاً . وكما أن الاتحاد السوفيتي يهدف إلى جعل العالم كله شيوعياً فكذلك نحن يجب أن نهدف إلى جعل العالم كله حراً — رجالا وشعوباً . فنحن لا أمل لنا في كسب الحرب الباردة بينما نحن نستخذى من أن نعلن للعالم أن هدفنا من الحرب الباردة هو تلك الحرية التي هي العنصر الجوهري في حضارتنا وثقافتنا .وطالما نحن عاجزون عن إعلان ذلك فإن جانبنا سيظل مضطرباً حائراً ، وسيظل منقسماً ومعرضاً لتسلل مزيد من الاستراتيجية الشيوعية الهادفة ومزيد من تكتيكاتها الماهرة .

العالم الحر يدرك أهدافه

١ — تعقد شخصية العالم الحر

وإذن فماذا عساه يكون ذلك الذى يحول بيننا وبين تحقيق ذاتيتنا ؟ ولماذا نجد العالم الحر متقاعساً فى إعلان إنجيل شامل يبشر بالحرية أولاً ؟ إنها أسئلة لا يوجد لها جواب واحد بمفرده ، لأن الأسباب التى تتجافى مع إعلان هــذا الإنجيل المنشور عن أهدافنا من الحرب الباردة عديدة ومعقدة .

وينبثق أول جواب على هذه الأسئلة فى الواقع من تعقد وتعدد الشعوب والأحزاب السياسية والتقاليد ، وتعقد الأساليب التى تتخذ ضد الشيوعية . ولما كانت كل جماعة من هذه الجماعات قد غلبت عليها أساليبها المحلية الخاصة فى مقاومة الشيوعية فقد أصبحت قضية الحرية بمعناها الوحيد الصحيح تنزع إلى الاحتجاب وراء ستار من الغموض والإبهام .

٢ — عقلية الأنجلو سا كسون التجريبية

وزاد من هذه النزعة اتجاه عقلية الشعوب الأنجلو سا كسونية التي تتزعم العالم الحر إلى الناحية التجريبية . إن ما يتطلبه الموقف إنما هو

الحقائق . وإذا كان الشعبان الأنجلوسا كسونيان من الذكاء بحيث لا يمكن أن يغفلا القدر الهائل من التفكير الذى لا بد من استخدامه فى إعداد أبسط الحقائق ، فهما مع ذلك يؤثران أن ينسيا كل مايتصل بذلك ، فهما أهل عمل وتنفيذ يتلذذان بعمل الأشياء وتنفيذها ، بقدر ما يفران من التفكير فيها . ولهذا فإن المبادىء بالنسبة للأنجلوسا كسون تنزع إلى التوارى فى أعطاف مزاج تتسلط فيه خواطر يوم الأحد عليهم ، وتسيطر عليهم فيه الوصايا العشر ، فلا يكون لهم مزاج أيام العمل الأسبوعى .ولعل فى هذا ما يفسر الدافع الذى دفع بروزفلت إلى تفتيت الحرية إلى حريات « لـ » وحريات « من » ، حتى يهيء بذلك شغلاً يشغل أيام العمل الأسبوعى ، أو شأناً يمكن لذوى النزعة العملية أن يجهدوا أنفسهم فى دراسته . وفى خلال كل ذلك تفتت المبدأ الوحيد الشامل الذى ينطبق على جميع الرجال وجميع الشعوب ، فى البحار وفى القارات جميعاً ، إلى مشكلات محلية ومشكلات مادية (وغالباً ما تكون اقتصادية) ، وضاعت الوحدة التى كان يمكن أن يوحى بها هذا المبدأ .

٣ — العالم الحر دائما مستعد للمفاوضة

وهنا يكمن سبب خطير من أسباب ضعفنا. فبينما خصومنا جزميون مطلقون ، إذا بنا نسبيون تجريبيون . . ومن هنا كان بعض السبب فى أننا دائماً مستعدون للمفاوضة (كعمل استراتيجى) بينما خصومنا لا يفعلون أكثر من أن يتكلموا عن المفاوضة (كعمل تكتيكى) . ولما كنا تفتقد الإحساس بالمبدأ الذى نذود عنه ، فقد كنا دائماً على

استمداد للمساومة على حل وسط ، كما لو كان هذا الحل الوسط ممكناً بين طرف يؤمن بالحل الوسط وطرف لا يؤمن به إطلاقاً .

والنتيجة السيكولوجية لذلك هي بعد كل ذلك نتيجة قابلة للانعكاس. ليس هناك مبدأ غربي ، إذن فالبحث يجرى للاهتداء إلى حل وسط . من جهة أخرى يجرى البحث للاهتداء إلى حل وسط ، وإذن فليس هناك مبدأ غربي .

والحالة الأولى منها تؤدى حتماً إلى الإعياء . فالدول الغربية أكثر ثراء وأكثر تعلماً من الجماهير السوفيتية، ولذلك فهم يكلون من الحرب، بل لقد كان الكلل من الحرب هو الذى كشف أوربا بعد هزيمة هتلر ، وهي تكاد تكون عزلاء من السلاح وعرضها أمام الاتحاد السوفيتي الذى كان لايزال محتفظاً بأسلحته الضخمة. وكذلك فإن فكرة حرب عالمية ثالثة فى خلال حياة رجال جاوزوا الأربعين هى أكثر مما يمكن أن نحتمل أو نتصور . ولهذا كان مجرد التشوق إلى أن نترك وشأننا فى سلام عرضة لأن يسيء الكثيرون فهمه على أنه تلهف على السلام ، ومن هنا كانت رغبتنا فى السعى إلى حل وسط .

٤ — التجارة بين الشرق والغرب

وهذا المسلك الذى يكاد يكون غريزياً ولاشعورياً يتفق مع عناصر أخرى أكثر إدراكية فى عدد من قطاعات الغرب . ففى مجال رأس المال مثلاً نجد هذا المسلك يغذى الرغبة « فى الاتجار مع روسيا » .

أما الحزب الشيوعى من جانبه فهو لا يفتأ يعمل،وهو ثابت على احتقاره أصحاب رءوس الأموال الغربيين ، لكى يغريهم بالتجارة بين الشرق والغرب، وكثيرون هم أصحاب رءوس الأموال الغربيون الذين يستسلمون لهذا الإغراء ، وهم طبعاً لا ينسون فى هذه الحالة أن يغطوا عملياتهم بجميع أنواع المحسنات والعبارات الورعة والأمل بأن تكون التجارة أساساً للسلم . . ويردد الشيوعيون هذه العبارات وراءهم بألسنة طلقة وأوداج منتفخة ، لأنهم يعلمون أن من بين القواعد الرئيسية فى العقيدة الماركسية أن التجارة الرأسمالية هى أول سبب من أسباب الحرب .

وهكذا يتدلى هذا الطعم الذى يتمثل فى التجارة بين الشرق والغرب من فوق أنوف أصحاب الأعمال الغربيين . بل لقد اشتركت الأمم المتحدة نفسها فى هذه اللعبة التى لاجدوى منها ، بل هذه اللعبة الخطرة . أما أنها لا جدوى منها فمرد ذلك سببان . وأما خطورتها فمردها سببان كذلك .

فأما من ناحية عدم جدواها فيجمل بنا أن نذكر فى هذا الصدد أن التجارة بين الشرق والغرب كادت قبل الحرب تقتصر على ألمانيا وحدها بفضل مساعى النظام النازى ومحاولته الهيمنة على دول البلقان. فقد كانت التجارة بين بريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتى فى الفترة من ١٩٣٦ — ٣٨ لا تبلغ إلا نحو ٣٫٤٥ فى المائة من جملة الواردات البريطانية ، ونحو ٣٫٩٨ من جملة الصادرات . كما كانت تجاره بريطانيا مع الدول التوابع أقل من ذلك بكثير . وكانت التجارة بين الشرق

والغرب تتألف من حاصلات الأرض والحيوان التى كان الشرق يرسلها إلى الغرب والتى أصبح الشرق عاجزاً عن تصديرها الآن . أما الدول التوابع فبسبب استنزاف مواردها نتيجة لاستغلال الاتحاد السوفيتى لتلك الموارد استغلالاً لا هوادة فيه ، وأما زعماء الاتحاد السوفيتى فلأنهم ، قد أصبح الخطر يتهددهم من جراء غضب الشعوب المضطهدة التابعة لهم ، لم يعودوا فى وضع يسمح لهم بإرسال المواد الغذائية إلى الغرب خشية ازدياد القلق بين تلك الشعوب . يضاف إلى ذلك أن إنتاج الحبوب فى الاتحاد السوفيتى لم يعد مرضياً مما جعل اللجنة المركزية للحزب الشيوعى تهدر وتدمدم مما وصل إليه هذا الإنتاج . يعزز هذه الحقيقة أن الاتحاد السوفيتى قد دأب أخيراً على تصدير البلاتين والفضة والذهب . وهكذا تبدو عبارة « التجارة بين الشرق والغرب » صيحة خلابة ، ولكن من حقنا أن نتساءل : فى أى شىء تكون هذه التجارة ؟ طبيعى أن عروضاً هامة قد وضعت بالفعل وقبلتها بيوت الأعمال فى الغرب ، ولكن هذه العروض تكاد تتألف دائماً من السلع الإنتاجية والأجهزة الصناعية ومن مصانع برمتها ، فما أحكم أن تجهز خصمك بما تحتاج إليه !

أما السبب الثانى فى أن إغراء التجارة بين الشرق والغرب الذى يتهادى أمام أنوف رجال الأعمال الغربيين هو إغراء لا فائدة منه ، إذ أنه من غير المؤكد إطلاقاً أن الاتحاد السوفيتى نفسه يريد أن ينمى التجارة بين الشرق والغرب ، بل لعل العكس هو الأصح . فمن الناحية الأولى يدرك زعماء الاتحاد السوفيتى موقفهم الذى هم فيه . ويدركوا من أجل

ذلك كل الإدراك أنهم لا يملكون ما يتجرون فيه . ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء الزعماء قد استطاعوا على مدى السنوات الماضية أن يخضعوا الدول التوابع إلى وضع أصبحت تعتمد فيه اعتماداً كلياً فى تجارتها على موسكو حتى يكونوا بذلك أقدر على استعبادها . وقد أضفى هذا الموقف على الاتحاد السوفيتى إلى جانب ذلك فوائد مادية لا تحصى ، إذ تستطيع موسكو أن تملى الثمن الذى تدفعه نظير ما تأخذه منها من بضائع ، حتى لقد بلغت أرباحها من ذلك ١٠٠٠٪ فى بعض الحالات ، سلبها من هذه الدول التوابع « أولئك الذين جاءوا لحمايتها » . وكذلك الفوائد السياسية فهى ليست بأقل من ذلك قدراً ، إذ لم يعد فى مقدور أية دولة من هذه الدول التوابع أن تتحرك خارج مدار الاتحاد السوفيتى دون أن تتعرض للخراب ، وإنه لمن السذاجة فى هذه الظروف أن يظن أحد من الناس أن الاتحاد السوفيتى يرغب فى زيادة التجارة بين توابعه وبين الغرب — إلا أن يكون ذلك فى الأحوال التى تتحول فيها هذه التجارة إلى صفقات يشترك فيها الغرب مع موسكو فى استغلالها البشع لتلك التوابع .

هذا فيما يختص بعدم جدوى هذه اللعبة . أما من حيث خطورتها فإن العامل الأول فى هذه الخطورة قد أخذ يبرز الآن ، وأخذت تتضح معالمه . فلقد تريد موسكو بالفعل أن تهادن الغرب بالاشتراك معه فى استغلالها القاسى لموارد الدول التوابع ، ولكن إذا استطاع الاتحاد السوفيتى أن يرغم الجر على أن تبيع روسيا سلعة من إنتاجها بثمن يقل مثلاً

عن الأسعار العالمية لهذه السلعة خمس مرات ، ثم إذا باع الاتحاد السوفييتي هذه السلعة مرة أخرى إلى دولة من دول الغرب ، فإن المسئولية فى هذه الصفقة التى تقوم على اللصوصية يمكن دائماً أن تلقيها على هذه الدولة الغربية صحافة مجرية يهيمن عليها السوفيت . وعلى أية حال فأياً كانت الأسعار فإن الغرب لا يستطيع أن يتاجر مع الشرق إلا إذا هو اشترك مع أقسى المستغلين لعرق العمال الكادحين والفلاحين الجائمين الذين عرفهم العالم حتى الآن . . إن نقص المواد الغذائية هو أكبر مشكلة عاجلة فى أوربا الشرقية الآن ، وأوربا الشرقية فى الوقت عينه لا تستطيع أن تصدر آلات إلى الغرب . ومن ثم فإن على الغرب أن يدرك أنه حين يتاجر مع ما يعرف « بالشرق » فهو إنما يتعامل مع مصاصى دماء شعوب أوربا الشرقية ، وهو أمر فى غاية الخطورة لأنهم بذلك يدفعون تلك الشعوب — وهم على ما هم عليه من جوع ويأس — فى أحضان مستغليهم .

ولكن هذه اللعبة خطرة كذلك لسبب آخر . فإن هذه الضجة التى تثار بشأن التجارة بين الشرق والغرب إنما هى أفيد ما تكون للاتحاد السوفيتى نفسه ، فهى تحجب الموضوع الأساسى بين الشرق والغرب ، وتثير بين الشعوب الغربية منافسات على التجارة تفرقهم وتقسمهم على أنفسهم ، وتساعد على خلخلة الحظر المفروض على الاتجار فى السلع الإستراتيجية . بل لقد ذهب أحد رجال الأعمال البريطانيين إلى موسكو فى بعض الشئون التجارية ، فلما كان فى استقبال اقامته وزارة

التجارة الخارجية السوفيتية غلبه التحيز ، لا التحيز المنبعث من شمبانيا العزم ، ولـكـنه التحيز المنبعث من العقود التى يعرضها السوفيت ، فلم يتمالك أن يرفع كأسه ليشرب نخب إلغاء الحظر على البضائع الإستراتيجية وراق هذا العمل بالطبع السلطات السوفيتية ، فهم لم يكونوا قد نسوا بعد أن حكومة العمال البريطانية كانت قد صدرت إلى الاتحاد السوفيتى محركين من محركات الطائرات من ماركة « نين » Nene هما اللتان ساعدتا القوات الجوية السوفيتية على صنع طائرات الميج . وكل الناس يعلمون مدى ما أصابته طائرات الميج من نجاح فى كوريا . ومن هذا يتضح أن التجارة بين الشرق والغرب ، وإن عرضت على أنها مسألة اقتصادية بحتة ، فهى فى جوهرها مسألة سياسية دائماً بل الواقع أن كل ما يدخل فى نطاق العلاقات مع الاتحاد السوفيتى له صبغة سياسية ، وهو لا بد مرتد إلينا ، عاجلاً أو آجلاً ، كسلاح سياسى فى الحرب الباردة .

نعم ، فقد استخدم كل من الاتحاد السوفيتى والصين الشيوعية طعم التجارة بين الشرق والغرب أحسن استخدام لإحداث الفرقة بين شعوب الغرب واعتصار قوتها . أما الفرقة ، فلأن الشعوب ذات البيوت التجارية الـكبرى تتنافس على التجارة مع الشرق مع ما يجلبه ذلك عليها من نتائج وخيمة ، سواء فى وحدتهم أو فيما بينهم من ثقة متبادلة . وأما إضعافها واعتصار قوتها ، فلأن التجارة إذا تمت بين الغرب بما عنده من وفرة ، وبين الشرق بما فيه من حاجة ومسغبة ، فإن التعامل سيتطور عاجلاً أو آجلاً فيصبح الدفع إما بالذهب (وهو بالنسبة إلى الغرب قد

أصبح مجدباً من الناحية العملية) واما بقروض لن يدفعها الاتحاد السوفيتى[1] .

٥ — التلهف على الاشتراكية

وفى الطرف الآخر من ميزان التفكير السياسى نلتقى بمسلك الأحزاب الاشتراكية الذى يتسم بشىء من الإبهام ، وإن لم يكن هذا المسلك متطابقا فى كل مكان . وأقرب هذه الأحزاب إلى موسكو ، بل الواقع أنه قريب منها إلى حد أنه يمكن اعتباره خاضعاً للشيوعيين ، هو حزب نينى الإشتراكى فى إيطاليا . يليه فى هذا الجانب من الخط كثيرون من الاشتراكيين الفرنسيين واشتراكيو الجناح الأيسر البريطانى . ويمكن القول بصفة عامة إن الاشتراكيين فى الغرب لم يتخلوا كلية عن أملهم فى أن تخلع الشيوعية الروسية عن نفسها يوماً ما مظاهر الحكم الجماعى المرتكز على سلطان الحزب الواحد وأن تعود مرة أخرى فتصبح حزباً شقيقا ، بل تصبح فى الواقع الحزب الاشتراكى الوحيد بالنسبة للاشتراكيين جميعا .

وهذا الأمل الذى يراود الاشتراكيين فى الغرب فى أن يستعيدوا إخوانهم فى الشرق إلى حظيرتهم مرة أخرى قد قعد بهم عن اعتناق قضية الحرية فى الغرب . وفى هذا ما يفسر لنا السبب فى أن عدداً كبيرا من الاشتراكيين بين شعوب الغرب طالما أعلنوا عن استعدادهم للدخول فى

---

(١) راجع فى هذه النقطة كتاب دلملم ريبكيه .

اتفاق مع أكبر آجر قد قلبه من صخر فى معاملته لعمال أوربا الشرقية الذين يأجرونهم — ألا وهو الاتحاد السوفيتى — وإنها حقا لصفقة لو قدر لها النجاح لكانت أكبر خيانة من عمال لعمال فى تاريخ العالم .

وهكذا نجد أن هذا الانتفاء فى العمل بين جناحى دنيا الإنتاج — رأس المال والعمل — قد ترك الغرب فى حالة متواصلة من التمنى والانتظار لعله يصل إلى اتفاق مع موسكو .

٦ — خرافة الإنسان الذى يسمو على البشر

وتستجد فى هذه المرحلة تجربة سيكلوجية غريبة تدفع الأمور إلى نهايتها وتساعد على وضعها فى قالب مسرحى . فإن من طبيعة البشر أن يجنح الناس إلى محاكاة ما يقع عليه بصرهم مدة طويلة . وكذلك الشيوعيون فى موسكو ، فقد شاهدوا ولا شك فى ظل استبداد ستالين الصارم الطويل الأمد (بشىء من الحسد فى قرارة نفوسهم) التغيرات العديدة التى تطرأ على مسرح الأحداث السياسية فى الغرب ، روزفلت يخلفه ترومان ثم أيزنهاور ، آتلى يخلف تشرشل ، ثم يعود تشرشل فيخلفه ثم يخلى مكانه بعد ذلك لإيدن ثم ماكميلان ، سلسلة طويلة تبعث الدوار فى الرأس من رؤساء الوزارات الفرنسيين تنتهى بتمكين الرئيس دى جول من السلطة . ولذلك فما كاد ستالين ينتقل إلى العالم الآخر حتى أعلن الروس عن عهد جديد من الحكومة الجماعية ، وكان أهل الغرب من ناحية أخرى يرقبون استقرار الحكم فى عهد ستالين بكثير من الحسد فى قرارة نفوسهم ، وسواء أرادوا أو لم يريدوا ، سرعان ما وجدوا

أنفسهم معجبين بالإنسان الأعلى الذى يسمو على البشر والذى تبينوه الآن فى شخصه . لم يكن من الصعب ، فى إطار هذه العقلية أن ينتقلوا بعد ذلك إلى اتخاذ سير ونستون تشرشل إنسانا يسمو على البشر ، كذلك — ولا سيما أن الخامات التى تولت شخصية الإنسان الأعلى كانت أصدق فى حالته ، وأن سير ونستون نفسه لم يبد فى ذلك مقاومة مستعصية . وكانت النتيجة المحتومة بعد ذلك أن تكتمل جوانب المثلث بترومان أو أيزنهاور . وهكذا أقيم جبل أوليمبوس آخر من الشخصيات التى تسمو فوق البشر لتقضى على كل متاعبنا وآلامنا بين يوم وليلة . وانطلق أعضاء البرلمان البريطانى وقد نسوا ما كان لاجتماعات يالتا وطهران من نتائج محفوفة بالكوارث يطالبون باجتماع « على أعلى مستوى » كما لو كانت هذه الشخصيات التى تسمو على البشر قادرة فى اجتماع عارض عاجل على الاتفاق . بإلهام من روح القدس . على حل مسائل استعصى حلها على الدراسة المثابرة وتعذر الاتفاق فيها بعد البحث المستفيض . ومن هنا نشأت أسطورة اجتماعات القمة التى كانت من أسخف ما ابتدع فى تاريخ الإنسان . وهل يمكن أن تكون العجلة والظروف الغريبة وعدم كفاية المكان والموظفين ، وعدم اتساع الوقت ، والمبالغة فى الضجيج والعجيج ، والإفراط والإعلان من المؤثرات الدبلوماسية ؟ إن الشخصيات غير العادية التى تسمو على البشر قد تسمو كذلك فى ارتجال قرارات سامية غير عادية ، وتكون النتيجة فى أغلب الأحيان عملاً ضخماً من من الحماقة والخرق . كتقسيم ألمانيا وترك برلين معزولة فى وسط

المنطقة السوفيتية . وتستمر الأسطورة فى طريقها وترتفع الآمال عالية فى صدور الناس العليلة التى لا شفاء لعلتها — ولـكن فى العالم الحر وحده. فصدور الناس فى العالم الشيوعى أكثر استئناساً واستدجاناً من أن تراودها هذه الآمال .

٧ — القومية وسياسة القوة

وهذا الأسلوب فى النظر إلى الأشياء هو أكثر ما يكون خطراً بما يشجع عليه من العودة إلى القومية المتأججة وإلى سياسة القوة ، التى قد تـكون فى الآونة الحاضرة أكبر خطر يتهددنا بعد الشيوعية . إذ لما كانت سياسة القوة لا تعدو أن توكيداً لمبدأ « القوة هى الحق » فإن عودة الغرب إلى سياسة القوة هى فى ذاتها نصر للشيوعية . ولابد لنا من أن نسجل هنا ، مع كثير من الأسف والأسى ، أن جزءاً كبيراً من المسئولية ، بل لعله الجزء الأعظم من المسئولية ، عن اتجاه الأمور هذه الوجهة المؤسفة ، إنما يقع على شعبى أمريكا وبريطانيا ، وعلى حكومتيهما وصحافتهما ومواطنيهما ، وإن كانت هناك ولا شك بعض تلوينات وظلال داخلية بسيطة فى كل من البلدين . ففى الولايات المتحدة قد يكون البيت الأبيض ووزراء الخارجية أكثر استنارة من الـكونجرس أو البنتاجون .[1] وفى بريطانيا قد يكون حزب العمال أحياناً أكثر استنارة من حزب المحافظين ، ولـكن الشعبين الأنجلو ساكسونيين إنما يضمان للعالم مع الأسف مثلاً مؤسفاً على القومية يصعب فى بعض

(١) مركز قيادة الجيش — المترجم .

الأحيان ولا سيا فى حالة دولتين قويتين مثلهما لهما كل هذه المصالح المتشعبة ، أن تفرق بينه وبين الأمبريالية .

وليس في الواقع شيء أبعد عن القسط ، بل أكثر سخفاً ، من أن يحاول أحد من الناس أن يسوى بين الاتحاد السوفيتي وبين الولايات المتحدة فى هذا الصدد (أو فى أى صدد آخر) ، ولكن عقد موازنة مع ذلك بين الموقف فى توابع الاتحاد السوفيتى فى أوربا الشرقية وبين الموقف فى توابع الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية لابد أن يبدو أكثر إثارة للعاطفة مما قد يفيد قضيتنا . صحيح أن التبعية الاقتصادية فى حالة السوفييت تمت بوسائل سياسية ، ولكن هذه التبعية موجودة مع ذلك فى كلتا الحالتين ، بل أسوأ من ذلك أنها وجدت عن عمد[1] فاذا أضفت إلى ذلك سياسة الولايات المتحدة فى بعض المسائل الأخرى كالهجرة وجوازات السفر ، والضرائب والجمارك ، خرجت الصورة كاملة وقد رسمت شعباً يمج بالقومية المتأججة صمم على أن يحرز من القوة ما يزيد على الحد الذى يتفق مع مصلحة نفوذه الأدبى فى العالم .

أما فيما يتصل ببريطانيا العظمى فإن رفضها السماح لمجلس أوربا بأى قسط من الحيوية وفتورها بإزاء أى شكل آخر من أشكال الترابط الأوربى (فى ناحية الدفاع : الدول الست) ، وتباطؤها فى تنفيذ تراجعها الحكيم عن فكرة الإمبراطورية البالية ، وجميع الظروف

---

(١) أوربا من غير شواطىء — لمؤلفة فرانسوا بيرو — باريس ١٩٥٤ .

المحيطة بسلوكها الجزرى الذى عطل كل تطور غربى فى إتجاه نوع من السلام الفدرالى ، كل ذلك لا يمكن أن تكون قد أملته روح غير روح سياسة القوة التى أصبحت بعد اكتشاف القنبلة الهيدروجينية شيئاً عفى عليه الزمن .

وقد وقعت فى نيويورك فى أواخر سنة ١٩٥٤ حادثة ذات شطرين تلقى ضوءا على الموقف . فقد ألقى مستر أنتونى نائتنج بياناً عن موقف بريطانيا من مشكلة فرموزا . وجاء هذا البيان على غير العادة معززا لموقف الولايات المتحدة إلى حد أغضب أصدقاء ما وتسى تنج المخلصين فى حزب العمال البريطانى ، ثم ما كاد العالم يفيق من دهشته حتى ألقت الحكومة الأمريكية بكل ثقلها الى جانب بريطانيا فى مسألة قبرص ، وحالت دون نجاح اليونان فى عرض هذه المسألة على الأمم المتحدة وليس بنا حاجة فى هذا المقام إلى سرد تفاصيل قضيتى فرموزا وقبرص فالمسألة الحقيقية التى هى موضع بحثنا الآن هى : هل كان من الكياسة السياسية هزيمة جهود صادقة بذلت لحل خلاف من الخلافات بطريق الحكمة والتعقل بدلا من حلها بأسلوب القوة على هذا النحو من النفع المتبادل؟ وإذا كانت الدول العظمى التى تقف فى أعلى درجات السلم الدولى التى تستخدم القوة على أنها الحجة الأخيرة فى جعبتها كلما كان الأمر يتصل بمصالحها ، فإن أكبر فارق وأعمقه بين الشرق والغرب لابد أن تغشاه سحابة تحجب معالمه . وإن أشد المراقبين صداقة لبريطانيا العظمى وأكثرهم إخلاصاً لها لابد أن ينفطر قلبه إشفاقاً وهو يستمع إلى ممثل

بريطانيا فى الامم المتحدة يعلن فى إحدى المرات أنه إذا صدر قرار يبيح عرض قضية قبرص على هيئة الامم المتحدة فإنه سوف ينسحب من الاجتماع . ومثل هذا القول ينصرف كذلك إلى مندوب فرنسا فيما يتصل بقضايا شمال إفرقية .

٨ — التنافس الإنجليزى الأمريكى

وكثيراً ما أدت هذه النزعة البالية إلى سياسة القوة إلى أزمات خطيرة بين الشعبين الأنجلو سا كسونيين . وإن موقف الرئيس روزفلت الذى يقوم على سوء التوجيه بإزاء الأخطار التى قد يخشاها العالم من كل من الاتحاد السوفيتى والإمبراطورية البريطانية لهو إحدى مظاهر هذه السياسة التى أعمته عن الخطر المميت الذى نعيش فيه اليوم جميعاًولاسيما بلده هو . ولعمرى كيف تأتى لمثل هذا العقل الجبار أن تعميه مثل هذه الغشاوة ؟ السبب فى ذلك هو قوة الأفكار الطيفية التى تسيطر أحياناً على عقول الأحياء . فنحن جميعاً تسكن فينا أطياف من الأفكار تسيطر علينا أحياناً . وليست الدولتان الأنجلو سا كسونيتان الكبيرتان استثناء من هذه القاعدة ، فلقد أوحت الأفكار الطيفية الكامنة منذ سنة ١٧٧٦ بماأوحت إلى روزفلت فنفثت فيه روح التشكك فى «إمبريالية» تشرشل . والأمريكى العادى فى يومنا هذا لا يزال يعيش فى عالم من الأطياف والأوهام تسمح له بأن يرى فى شخصه كلا من واشنجتون وجفرسون وفرانكلين ولنكولن ، وقد وقفوا جميعاً يجاهدون جهاداً كريماً ليحرروا تمثال الحرية من المؤامرات المعتمة التى يدبرها ورثة جورج الثالث وأسرة البوربون الذين تحولوا الآن فى نظره من أعداء إلى

حلفاء بحكم ما يضيفه بُعدُ المسافة على المنظر من جمال وسحر . وهكذا تحول تاريخ الولايات المتحدة تحت تأثير أحلام اليقظة التى يمعن فيها مواطنوها إلى قصة حب للحرب والسلام لم يشهد العالم مثلها من قبل . وهكذا تحول الإمبرياليون الأشداء الذين اقتحموا طريقهم من فوق رءوس الهنود والهولنديين والفرنسيين والأسبان والمكسيكيين وقد ألفوهم يمتلكون ما أراده الله دائماً أن يكون الولايات المتحدة — تحولوا الآن إلى قديسين يدعون إلى سلام دائم وتهتز هالاتهم غضباً حين يرون الإمبراطورية البريطانية وقد بسطت سلطانها على ما يقرب من ربع الكرة الارضية .

وفى رعاية هؤلاء القديسين الحماة شرع أمراء البحر ورجال البنوك فى الولايات المتحدة يبثون نشاطهم المالى للسلام فى أطراف القارات الخمس وأعماق البحار السبع . فالولايات المتحدة تمتاز على العالم كله بما لها من تفوق فى مضمار البحرية ومجالات المال ، تفوق لم تعرفه بريطانيا نفسها فى يوم من الأيام . وقد كان من المحتمل أن تخفف هذه الحقيقة من حدة الشعور المعارض للإمبريالية البريطانية فى أمريكا لولا الظرف المزدوج الذى يعمى الرجل الأمريكى العادى عن أن يرى فى تفوق أمريكا البحرى فى الباسفيك وتفوقها الاقتصادى فى أمريكا الجنوبية شيئاً من الإمبريالية ، ويحمله على الإيمان بأن أمراء البحر ورجال البنوك البريطانيين قد استطاعوا رغم العوائق الكبيرة التى تعترضهم أن يثبتوا وجودهم إلى حد كبير . ومع كل ذلك فان لبريطانيا فى الولايات المتحدة

مركزاً لايدانيه مركز دولة أخرى،مركز تمقد جذوره إلى أعماق التاريخ، وتلك ظاهرة أخرى من ظواهر التفكير الطبيعى . فالولايات المتحدة لا تزال إلى اليوم تشعر فى قرارة نفسها بالحبل السرى الذى يشدها إلى الدولة الأم . وإذا أراد أحد من الأمريكان أن يجادل فى صحة ذلك فما عليه إلا أن يفكر فى هاتين الحالتين المتفارقتين . فكل ملك من ملوك أوربا يعطى فى أمريكالقبه الكامل ، فيقولون ملك الدانيمارك ، وملكاليونان . أما حين يشيرون إلى المملكة المتحدة فإنهم يكتفون بكلمة الملك أو الملكة . وعلى أساس من هذه الجذور التاريخية ازدهرت فى أمريكا مشاعر الإعجاب الصادق ببريطانيا وشعبها ، بعضها يعتمد على الواقع الملموس كإعجاب الأمريكيين بالخلق البريطانى مثلاً ، وبعضها يقوم على الرغبةفىالزهو كالتهافت علىملابس الرجالالمصنوعة من خير الأقمشة وفق الذوق البريطانى ، وبعضها الآخر يستند إلىمجموعة من المشاعر الوسيطة تهيمن عليها جميعاً الذكرى العاطرة لموقف البريطانيين الرائع فى سنة ١٩٤٠ — البريطانيين وحدهم — مما ترتب عليه قيام علاقات متشابكة ألهبت رغبة الأمريكان فى تقليد بريطانيا،ودفعتهم إلى النظر إلى أنفسهم على أنهم هم بريطانيا القرن العشرين . وهكذا نتبين فى أعماق الإمبريالية الأمريكية روابط عديدة ، بعضها موجب وبعضها سالب ، تشد أمريكا إلى بريطانيا .

أما الإمبريالية البريطانية فهىأ كثر توطناً بين الشعب الذى يعيش فوق جزيرة ، وهى من ثمّ تأبى أن تنحنى إلا بصعوبة شديدة للضرورة

الملحة التى يقتضيها التنازل عن كيانها إلى الأمريكى الذى ارتفع حديثاً إلى مضمار القوة . غير أن واقعية البريطانيين وحسن إدراكهم للأمور يجنبهم فى الوقت نفسه حماقة مقاومة التفوق الأمريكى ، كما أن حزمهم ومرونتهم يسمحان لهم بالبقاء فى الميدان وأن يحتفظوا على أية حال بالمكان الثانى بين دول الغرب العظمى . بل وما كان للولايات المتحدة أن تثبت وجودها كدولة لها الصدارة فى العالم الغربى دون الإخلال ببعض المواقف المحلية العريقة التى سبق لبريطانيا تحقيقها هنا وهناك ، وفى كل مكان ، أيام سطوتها . ومن شأن موقف كهذا أن يؤدى إلى حوادث من كل نوع ، تارة بين أمراء البحر ، وتارة فى الصحافة ، وتارة فى الكونجرس ومجلس العموم . ومن بين مظاهر هذه المبارزة التى لا تنقطع بين الدولتين الحليفتين وأكثرها تنويراً لأذهان الناس ذلك الشعور بالإمبريالية المهيضة الذى تحدثه ادعاءات الأمريكان أو أعمالهم فى نفوس بعض السياسيين من أعضاء حزب العمال البريطانيين الذين يؤمنون بأنهم على أكبر قسط من التقدم .

يبين من ذلك أن تمسك الشعبين الأنجلوساكسونيين بسياسة القوة التى عفا عليها الزمن يهدد علاقتهما الطيبة باستمرار . على أن مما يقلل من أثر هذا الخطر — وإن انتزعَ فى خلال ذلك بعض ريش العُقاب وعقصَ ذيل الأسد أحياناً — ذلك الإدراكُ الحكيم للأمور والميل إلى أخذ المسائل بروح فكهة ، الأمران اللذان يتحلى بهما الشعبان . كذلك يخفف من حدة الخطر إيمانهما العميق بأهمية الاحتفاظ بحسن التفاهم

المتبادل بينهما من أجل السلام العالمى ، وإن كانت هذه الناحية الأخيرة قد تكون شكلية فى طبيعتها أكثر منها واقعية . أما أن حسن التفاهم المتبادل بين الدولتين الأنجلوسا كسونيتين الكبيرتين أمر لامندوحة عنه لسلام العالم فهذا مالا يمكن أن يجادل فيه أحد ، إلا أن يكون به مس من الجنون أو أن يكون شيوعياً ، ولكن بشرط أن يتجه هذا التفاهم فى روحه وأهدافه إلى ما فيه خير العالم ، لا أن يكون وقفاً على مصالح الدولتين وحدها الأنجلوسا كسونيتين القصيرة النظر .

٩ — الهند

ومن شأن التقاليد الإمبريالية البريطانية أنها تعقد الأمور فى مناح أخرى كثيرة . من ذلك أن موقف البريطانيين فى بعض الجهات ، كشنغهاى وهونج كونج ، كان لا بد أن يكون له أثر كبير على رأى بريطانيا وسياستها بإزاء الصين . وإنه ليكون أمراً يتجافى مع واقعية الأشياء أن يأبى أحد من الناس الاعتراف بالصعوبات التى يتعين على أية حكومة بريطانية مسئولة أن تواجهها نتيجة لهذا الموقف . ذلك أن أية دولة عظمى ، مهما اتسع أفق خيالها ومهما كانت قدرتها على المواءمة بين نفسها وبين الظروف الجديدة ، لا تستطيع أن تخطر فى حركاتها كما تخطر راقصة الباليه بخفة فوق خشبة المسرح . إذ لا بد لها من وقت كاف ، لا لتعديل سياستها وترتيبها فحسب ، بل كذلك لتعطى المواقف فرصة كافية للنضوج . ومن هذه الزاوية قد تكون تركة الإمبراطورية

البريطانية عبئاً يعرقل حركات البريطانيين ، ومن ثم فقد تكون سبباً فى الاحتكاك بين بريطانيا والولايات المتحدة .

وإن مجرد وجود الهند لهو واحد من هذه الحالات . فلقد ارتفعت هيبة بريطانيا كثيراً فى الهند منذ أن اعترف المستر آتلى ، يحدوه شعور جميل من السياسة الكيسة ، باستقلالها . ومنذ ذلك الوقت لم تكن العلاقات الطويلة بين البلدين فى يوم من الأيام أسعد ولا أحسن مما هى الآن . ولكن هند اليوم ليست فى الغالب إلا المستر نهرو نفسه . غير أن هذا الرجل العظيم حقاً ، شأنه شأن غيره من عظماء الرجال حقاً ، يخطىء ويصيب ، فموقفه بإزاء الحرب الباردة غير واضح فى نظر الغير بقدر ما يبدو واضحاً فى نظر نفسه . فهو إلى الحد الذى يظل يدعو فيه بقوة وصلابة إلى نوع من المهادنة إنما يقوى النزعة إلى المهادنة بين أفراد الجناح الأيسر من حزب العمال ، الذين يجنحون دائما إلى تحويل سياسة بريطانيا الخارجية عن طريقها الصحيح . ولكن المستر نهرو مع ذلك قد حمل سياسة الحياد فى غير انقطاع ولا تردد ، لايخشى فى ذلك سياسة الابتزاز السياسى عن طريق التهديد التى يسير عليها الشيوعيون فى بلده ، ولا يهاب السياسة الإمبريالية التى يتبعها الشيوعيون الصينيون فى التبت تظلله من بعيد حماية القوات الأمريكية الفعالة .

ولقد كان التهديد الصينى حدثاً فتح عيون المستر نهرو والرأى العام الهندى إلى واقع الأمور ، بعد أن كان الرأى العام فى الهند قد نزع بعض الشىء إلى الإيمان بأن الهند قد اكتشفت الطريقة التى تسحر بها التنين

الحرب على نغمات مزمار التماليم الغاندية . وقد يحفز هذا الموقف الجديد الهند إلى تسليح حدودها الشمالية وتحصينها حتى يلقنوا الشيوعيين الصين درساً فى الحكمة ، وبذلك يؤكدون موقف الهند فى حيادها بطريق غير مباشر إذا ما توارى الخطر الصينى ، كما هو الحال دائماً مع التهديدات الشيوعية ، عند رؤية الأسلحة الهندية .

والواقع أن الدول العظمى بدلاً من أن تقود الحوادث وتسير أمامها قد تثاقلت فى السير خلفها (ولست أشير هنا بالطبع إلى الميدان الفنى فهذه الدول تقف منه فى المقدمة) . فهى لا تزال تحتمى وراء مسائل قانونية كولاية الدولة وسيادتها ، بينما العالم قد شُغل بكثير من الأمور الواقعية ، كالحركات الحقيقية للرأى العام والمشاعر العامة ، ولا تزال تحتمى وراء عبارات على الرغم مما لها من قوة ورنانة أدبية ، مثل الحرية والعدالة ، قد تفقد هذه القوة والرنانة إذا ما ظلت الأعمال التى تصدر عن أولئك الذين يستخدمون تلك العبارات لا تتفق كل الاتفاق مع أقوالهم .

وهناك مزيج تعس من التجريبية وسياسة القوة والقومية يفسر لنا سر المخالفات المؤسفة التى وجد أولئك الذين نصبوا أنفسهم للجهاد فى سبيل الحرية من الحكمة أن يعقدوها مع رجال من أمثال تيتو وفرانكو . وقد تكون اللهفة على معانقة تيتو — بيفان أولا ثم مونتباتن ثم أتلى وإيدن ثم ماتلا ذلك من زيارة لقصر بكنجهام — والضجة التى تثار حوله منذ ذلك الوقت ، مردها إلى حركة من الحركات التى تجرى فوق رقعة شطرنج سياسة القوة فى البحر الأبيض المتوسط أكثر مما هى

إجراء دفاعى ضد الشيوعية ، وفى الحق أن البحر الأبيض المتوسط الذى كان مهد حضارتنا ينذر الآن أن يكون قبرها الذى توارى فيه إذا هو ظل ميداناً للجذب والدفع فى الصراع من أجل القوة بين بريطانيا والولايات المتحدة . بخلاف ذلك كان الهدف من التلهف على معانقة فرانكو — وتلك القائمة الطويلة من أمراء البحر والكرادلة وأعضاء مجلس الشيوخ الذين جاءوا إلى قصر البرادو بمدريد وليؤدوا واجب الزيارة للدكتاتور ، تتوجها فى آخر الأمر زيارة المستر دالاس ثم زيارة الرئيس أيزنهاور نفسه — فقد كان إجراء قصد منه أن يكون لعبة على رقعة شطرنج سياسة القوة بين الدولتين الأنجلوسا كسونيتين الكبيرتين أكثر مما قصد منه أن يكون إجراء دفاعياً من جانب الولايات المتحدة ضد الشيوعية . ان فرانكو يبيع أسبانيا برمتها على أنها جبل طارق ضخم إلى الولايات المتحدة فى سبيل البقاء فى منصبه متحاشياً فى ذلك ما حدث لجبل طارق الصغير الذى أعطاه لويس الرابع عشر لانجلترا لكى يحتفظ بحفيده فوق عرش أسبانيا ، متجاهلاً فى الوقت نفسه واقع ٢٨ مليونا من الأسبان ، مستخفاً بعواطفهم وآرائهم وعقائدهم وهو يخطو من فوق رءوسهم إلى عقد هذه الصفقة التى تقوم على النفع المزدوج . أما ما هى عواقب ذلك على أوربا فهذا ما لا يمكن لأحد أن يتنبأ به ، بل لقد أغفلت فى سبيل ذلك حتى آداب السلوك المتعارف عليها إلى حد أن منحت الحكومة الأمريكية نيشان الاستحقاق من الدرجة الأولى للرجل ذاته الذى سبق أن منحه هتلر ، بوصفه رئيساً

الفرقة الزرقاء ، النيشان الحديدى . أضف إلى ذلك أنه بينما تيتو يذهب إلى قصر بكنجهام إذا بأيزنهاور يشخص بنفسه إلى مدريد .

إن الحصان يفكر فى شئ ويفكر سائسه فى شى آخر ، مثل أسبانى قديم يجد لنفسه الآن تعبيراً فى هذه الصفة . فالدول الغربية تفكر فى حركاتها فى البحر الأبيض وإن حاولت أن تخفى هذه الحركات خلف عباءة المحارب الصليبى البيضاء المنهمك فى حرب ضد الشيوعية . وتيتو وفرانكو بالطبع يتخذان من الشبوعية موقف المناهضة . ويأتى الآن الجاويش المكلف بعملية فرز الجندين فيجيزهما على أنهما صالحان للالتحاق بجنود الجلة . ولكن تيتو وفرانكو لايهتمان فى قليل أو كثير بإضعاف الشيوعية وتقليم أظافرها . ولماذا يهتمان ؟ فهما لا يزيدان قوة وبأساً إلا على الشيوعية . إن لكليهما هدفاً متشابهاً ، بل متطابقاً — هو أن يظل كل منهما محتفظاً بسلطانه. ولكى يظهرا فى منصبيهما كان لا بد لهما من أن يتخذا من الشيوعية بعبعاً مخيفاً. من مثل هذه العناصر تتكون الاتحادات التى يعقدها الغرب

ولكن فكر فى الفوائد من جهة أخرى : قاعدة هنا وقاعدة هناك والقواعد العسكرية هامة لأنها تؤمِّن ميزان الخوف . غير أن القنبلة الهيدروجينية قد انتقلت بالحرب الساخنة إلى مجال الفروض . ولكن على فرض أن الساب الحر خنة وقعت بالفعل فهى سوف تجلب فى أعقابها من الدمار والخراب مالايجعل لأمثال فرانكو وزناً سواء أكانوا حلفاءنا أم لم يكونوا . والحرب الساخنة لاتعدو أن تكون عنصراً واحداً من

بين عناصر عديدة تؤلف واقع حياتنا الحالية ، ألا وهى الحرب الباردة . فالخوف من الحرب هو أحد العقود الرئيسية التى يرتكز عليها صرح الحرب الباردة . على أن الحقيقة الواقعية التى تشغل بالنا ليست هى الحرب الساخنة بل الحرب الباردة ، ويستتبع ذلك أن تكون حكمتنا الذهبية التى يجب أن نهتدى بهديها هى ألا نخل إطلاقاً بفرصنا لكسب الحرب الباردة . وحتى لو أثبت التحالف مع فرانكو أنه أمر محمود من الناحية الفنية كوسيلة لكسب الحرب الساخنة (وهو مالم يثبت إطلاقاً) فقد كان يتعين علينا أن نتجنب كل حركة من شأنها أن تلطخ علمنا . وأكبر سلاح لدى أى جيش من الجيوش إنما هو علمه .

١٠ — ألمانيا

ألمانيا دولة يمتاز أهلها بمالهم من رصيد كبير من الصناعات المالية إلى حد جعل عيوبها أشد خطراً بسبب تلك الصفات ، فحبهم للنظام وذكاؤهم ، الفنى منه والعام ، ومثابرتهم ، ومهارتهم ، وشجاعتهم المادية ، كل هذه صفات جعلت الشعب الألمانى من بين الشعوب التى لها الصدارة فى العالم . يقابل هذه الصفات الغالية تقيد الألمان المؤسف بنوع من السلوك تغلب عليه النزعة القبلية . ولذلك فلم يكن على هتلر إلا أن ينمى الصفات والغرائز الكامنة فى الشعب الألمانى لكى يدفعهم إلى العدوان ويحفزهم إلى التخريب بالجملة باسم ألمانيا العظمى التى نجح فى تعريف معناها — ألمانيا فوق الجميع[1] .

(١) هذه النقطة يمكن أن يقال عنها إنها انتقلت إلى مدارج البحث العلمى . قارن مثلا كتاب ايلى ا . كوهين « السلوك الإنسانى داخل معسكرات الاعتقال » لندن ١٩٥٤ .

غير أن الشعب الألمانى عوقب عقاباً شديداً على ما ارتـكب ، فشهد مدنه تلق عليها القنابل فتحيلهاحطاما ، وأرضه تتمزق فتصبح قسمين . وما من أحد يستطيع أن يقول أى الآثار كان يمكن لهذه التجربة أن تحمله فى أعقابها لو أن ألمانيا استقبلت كما يستقبل الإبن المبذر العائد إلى أسرة حرة منظمةمن الشعوب ، على نحو الصورة التى رسمها سير ونستون تشرشل بمهارة فائقة فى خطاب له ألقاه فى سنة ١٩٤٣ . وإذن لرأينا تحول الروح الألمانية تحولاً صادقاً لا رجعة فيه إلى الشمولية السياسية ، تحولاً يشفع لها فيه ما أدته من خدمات للإنسانية فى ميادين الفلسفة والموسيقى .

غير أن ما يؤسف له أن الأسرة التى كان يمكن أن تقبل فيها ألمانيا كدولة ناقهة من كابوس النازية لم تـكن تلك الأسرة الموحدةمن الشعوب الحرة ، فالعالم منقسم إلى معسكرين لا يقبلان صلحا ، وهى نفسها منقسمة إلى قسمين ، قسم فى معسكر وقسم فى معسكر آخر . بل أدهى من ذلك أن الغرب الذى يتطلع إليه خيرة زعمائها فى إبلال بلدهم من إعيائه السياسى قد أثبت أنه عاجز عن تنظيم شئونه تحت راية مبدئه الصحيح فى الحرية ، فإذا كان الشعب الألمانى يشاهد الولايات المتحدة وقد علقت كل هذه الأهمية على عنصر القوة فساعدت حليف هتلر فى أسبانيا ، وإذا كان يشاهد الشعب البريطانى وقد تعلق بالإمبراطورية وأبى أن ينضم إلى اتحاد أوربى ، وإذا شاهد كلتا الدولتين وقد تمسكتا بنلوائهما وقوميتهما ، فلعمرى كيف ينتظر العالم — فى مثل هذا الصراع

على قهر الروح الألمانية القديمة وتوجيهها وجهة جديدة — أن تتغلب القوى التى تعمل على تنمية إدراك عالمى بين الألمان على القوى القبلية فيها ؟ وإذا كانت الغلواء سوف تكون النغمة التى يتردد صداها ، فمن ذا الذى يستطيع منع ألمانيا من أن تستعيد قوتها ؟ ثم على أى أساس يحتج أولئك الغربيون الذين ينظرون شذراً الى فكرة الاتحاد الأوربى ويستشعرون الأمن والسلامة خلف قوة الولايات المتحدة أو بريطانيا ضد إعادة تسليح ألمانيا ؟

١١ — فرنسا وإيطاليا :

وفى هذه الظروف يسهل فهم عجز فرنساوحيرتها ، ذلك أن الخطر من بعث ألمانيا ، يبدو أكبر فوق أفق فرنسا منه فوق أفق روسيا . فلو أن القومية الألمانية استطاعت أن تستعيد قوتها لأصبح من الجائز أن تحتج فرنسا ، يدفعها اليأس إلى العودة إلى عقد تحالف فعال مع موسكو[١] برغم ما قد يجلبه مثل هذا القرار من كوارث عليها وعلى العالم كله . وقد يكون أكثر من نصف الشيوعيين فى فرنسا فى اتحاد الآن مع موسكو ، ولكنه اتحاد بالإسم فقط ، أما الذى لا شك فيه فهو أن عدداً من الفرنسيين أكبر حتى من الشيوعيين الفرنسيين أنفسهم ، قد ينتقلون إلى تأييد روسيا اذاتفشت الروح القوميةمرة أخرى فى ألمانيا . وانها لظاهرة محزنة من مظاهر الموقف أن يكون الخوف

(١) هناك ميثاق مازال موجوداً على الورق بالفعل .

من ألمانيا قد انتزع من فرنسا القدرة على معالجة الخطر الذى تخشاه أكثر ما تخشى . إذ من الواضح أن المخرج الوحيد من هذه المشكلة ، ومن غيرها من مشكلات اليوم ، هو الاتحاد الأوربى الذى اقترحته فرنسا وقبلته ألمانيا ثم عادت فرنسا فقتلته قتلا .

هناك عدد من الأفكار الطيفية تملل هذه النهاية المحزنة . وأحد هذه الأفكار ، انبعث من طيف نابليون الذى يتحسس فوق أرض فرنسا فى حذاء الجنرال دى جول ، إنه طيف قد يساعد على حقن فرنسا بكميات ضخمة وسريعة من القومية المتأججة ، بل حتى فى الإمبريالية ، دون مبالاة بالحقيقة الثابتة وهى أن مثل هذه المسائل قد قضت عليها القنبلة الذرية والصواريخ عابرة القارات . وأن نابليون الذى كان ضابطاً ماهراً فى المدفعية وكان يمتاز بواقعيته ، ما كان ليكون بونابرت لو أنه عاش اليوم ، ولكن هناك فى فرنسا مع ذلك من لا يزالون يفكرون بمثل هذه العقلية كما لو كانت العربة ذات الجياد لا تزال أسرع طريقة للوصول من باريس إلى ستراسبورج ، ويحاولون أن ينقذوا فرنسا فى عزلة عن سائر أقطار أوروبا كما لو كان لفرنسا إلى الآن أو لأى شعب أوربى آخر كيان مستقل يمكن الدفاع عنه بجهود مستقلة .

ولكن انظر وتبصر ! فها هو طيف نابليون يتحول فيصبح رئيس الجمهورية الخامسة ، ثم هو لا يلبث أن يكشف عن نزعات تحريرية فى الجزائر ، وعن ميول إتحادية معتدلة فى أوروبا — وإن ذمها كثيرون من مواطنيه . ان التعاون الودى بين فرنسا وألمانيا هو أحد آمالنا اليوم

فهل يمكن أن يستمر هذا التعاون ؟ إن كل الجهود يجب أن تبذل لإقامة مختلف الصروح الأوروبية على أساس من هذا لعل فى ذلك ما يقوى هذا التعاون بأن يصبح مصدراً تستمد منه أوروبا بعض قوتها .

وفكرة الاتحاد الأوربى فكرة كانت إيطاليا قد قبلتها كذلك ، إذا كانت تعنى بالنسبة لإيطاليا خطوة كبيرة فى سبيل التغلب على مشكلتها الكبرى : مشكلة التنسيق بين عدد سكانها وبين إنتاجها .

وفرنسا وإيطاليا هما الشعبان اللذان استطاعت الشيوعية أن تصيب فيهما أكبر قسط من النجاح دون معاونة الأسلحة السوفيتية . وهما لذلك بالنسبة للغرب . مركزا الخطر الرئيسيين . فان تغييرا يحدث فى فى ميزان الأحزاب السياسية فى أى منهما قد يكون عاملا حاسماً فى فقد الحرب الباردة .

فإذا تركنا بعض الأسباب الصغرى جانباً (وهذه الأسباب تختلف من بلد إلى بلد) فإن السبب الرئيسى فى هذا النجاح الذى أحرزته الشيوعية فى فرنسا وإيطاليا كليهما هو فيما يبدو افتقاد بعض قدرة الطبقات العاملة والمثقفة فيهما على التوجيه . فالجنس اللاتينى يجنح أهله إلى القنوط ، ثم هم لا يرضون بسهولة عن الرخاء والسلم كما هو الحال مع النورديين فى الشمال إذ لا بد لهم فوق ذلك من عقيدة ، من مذهب ، من إطار يحتوى عقولهم ، من شىء يفهمونه ويحققونه ، ويتطلعون اليه .

وقد يكون ذلك واحداً من الدوافع السيكلوجية التى تكمن وراء

الحركة الاتحادية فى أوربا ، فلقد حاولت هذه الحركة بعد أن حبطت فى المجال السياسى ، بسبب فتور بريطانيا وعدم استقرار فرنسا ، أن تعبر عن نفسها فى المجال الاقتصادى . غير أن هذه المحاولة لم تؤد إلا إلى قسمة أوربا إلى « الدول الست » و « الدول السبع » . وهذه التجمعات إنما هى تعبير عن حل وسط بين الاتجاه إلى إقامة اتحاد أوربى وبين شتى أنواع المقاومة الطبيعية التى يتعين على هذا الاتحاد أن يتغلب عليها . فإذا صح ذلك فقد لا نكون مغالين إذا علقنا الأمل حتى يتغلب الاتجاه إلى الوحدة على المقاومات التى تحول دون إتمام هذه الوحدة ، وإلا فقد يطول الوقت قبل أن تصبح « الدول الست » و « الدول السبع » ، « الدول الثلاث عشرة » .

١٢ — مسألة إيمان

والموقف إذن واضح بيّن . إننا نشن حرباً باردة ، والأخطار التى تهددنا مميتة . وبينما الحرب الساخنة ستودى على أية حال بحضارتنا المادية فإن الحرب الباردة ، لو كسبها الشيوعيون ، سوف تقضى على حضارتنا المعنوية . غير أننا فى الوقت الذى نعد فيه العدة لندفع عن أنفسنا خطر الحرب الساخنة ، ونشق طريقنا وسط غبار الحرب الباردة ، نكتسب شيئاً فشيئاً بعضاً من أسوأ مظاهر الحياة عند أعدائنا : أخذنا عنهم عبادة الأبطال ، والنزعة إلى تحقير ، بل حتى إلى تزوير العملة الكلامية ، واستهانتهم المشينة بكل شىء ما عدا القوة . فإذا لم يستعد زعماء الغرب خطاهم سريعاً ، وإذا لم يستعيدوا ما كان لهم من

سلطان أدبي كادوا يبددونه تبديداً ، فإن الشيوعيين وأيم الحق سيكونون قد كسبوا الحرب الباردة ، لأننا — نحن أهل الغرب — سنصبح وقتها مثلهم ، إن حُسناً وإن قُبحاً . على أن الأخطار التي تنطوي عليها الحرب الباردة هي أخطار تتصل في حقيقة الأمر بالعقيدة والإيمان . فإذا لم تعد الجماهير في الشعوب الغربية تؤمن بقضية الغرب فكيف بنا نأمل أن تفهم جماهير الناس في آسيا وإفريقية هذه القضية وأن يسيروا خلفها ؟ وحين يتأجج كوكبنا كله بلهب النزعات التحررية ، فمن منا يستطيع وقتها أن يدفع الحركات التي تنجم عن ذلك إلى مجراها الصحيح ويقوم على تنظيمها إذا كنا نحن أنفسنا يعوزنا المبدأ ، والخطة والبنيان ؟ إن العالم ينحدر في اتجاه الفوضى والكارثة وقد يرحب وقتها بالشيوعية ، على الأقل لتكون القشة التي يتعلق بها في خضم الأحداث ، أو القميص الذي يُشد فيه المجنون إتقاءاً لشره .

مطلوب

١ — لا مفاوضات مع روسيا

الشروط التي يتطلبها إبلال العالم الحر ، شروط سلبية وإيجابية معاً . والشرط السلبي الأول هو تخليه عن اتجاهه الحالي إلى المفاوضات مع روسيا وإلى « التعايش السلمي » .

إن شعارنا في الوقت الحاضر ، ذلك الشعار الذي لا يسمح لنا اليساريون بأن ننساه أبداً ، هو « لنتفاوض مع روسيا » ! إلا أن هذا الشعار في ذاته هو بطبيعة الحال شعار مضلل ، شأنه شأن أي شعار شيوعي آخر ، أو أي شعار آخر — من وحي الشيوعيين — فنحن لسنا في موقف نتفاوض فيه مع الروس إطلاقاً ، حتى إذا أردنا أن نتفاوض — وهو ما كنا نفعله لو استطعنا إلى ذلك سبيلا . إننا لا نستطيع أن نتحدث إلا مع سادة الشيوعيين في روسيا ، وهي بالطبع مسألة مختلفة كل الاختلاف ، ومن ثم كان الشعار « لنتفاوض مع الروس ! » قد وضع ليحملنا على الاعتقاد بأن المقصود منه هو تسوية حسابنا من رصيد عطفنا وشعورنا الوجداني نحو روسيا — الأم القديمة — وما يتصل بها من أغنية مراكبية الفولجا ، إلى رقصات الباليه الروسية ، إلى ما كان لنا فيها من رفاق السلاح خلال الدفاع عن ستالينجراد . . .

وما إلى ذلك . إنه شعار قصد منه حملنا على أن ننسى أن الأشخاص الذين يتعين علينا أن نتعامل معهم بالفعل ليسوا الشعب الروسى نفسه وإنما هم على وجه التحديد أولئك الذين يحتجزون الشعب الروسى كله فى معسكر اعتقال ضخم يسمونه الاتحاد السوفيتى .

ويتساءل أولئك الذين يتشدقون بهذا الشعار : ومن أين لك — من أين لك أن الشعب الروسى لا يقف خلف حكومته ؟ أما من أين لى هذا ، فهو أنه ما من واحد من الناس يستطيع أن يغادر الاتحاد السوفيتى أو يغادر بلداً آخر من البلاد التى تدور فى فلكه إلا إذا ترك رهائن خلفه أو جازف بالموت عند الأسلاك المكهربة والألغام المبثوثة على الحدود ، وأن الرأى العام الروسى مكمم خلف الستار الحديدى بأساليب بشعة لا تقدر عليها إلا حكومة جماعية بغيضة . ومن هنا كان معظم أفراد الشعب الروسى ينظرون إلى هذا الشعار « لنتفاوض مع الروس » على أنه خيانة لحقهم فى الحرية . وما ينطبق على الشعب الروسى فى ذلك ينطبق على غيره من الشعوب التى تقع فيما وراء الستار الحديدى .

إنه شعار لا يعنى ما تحمله ألفاظه من معان . إنه أكذوبة شيوعية (وهو أمر واضح لا يحتاج إلى دليل) ، أكذوبة من بين الأكاذيب السياسية العديدة التى يطلقها الشيوعيون أنفسهم لكى يلقوا بالعالم الحر فى بحر من الحيرة والارتباك ، والتى يتلقفها منهم أكثر الناس غرارة فى الغرب ، وهم بالطبع الأغلبية العظمى من أحزاب اليسار . وإنه لمنظر غريب فى الحق أن يتدافع هذا العدد الكبير من اليساريين فى بريطانيا

وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا ضارعين إلى سادة موسكو كلما أبدى هؤلاء السادة أبسط إيماءة تشعر باستعدادهم للتفاوض . أليس هؤلاء السادة الذين يسيطرون على مصائر العمال فى موسكو هم أرذل فئة استغلت العمال واستبدت بهم رآها التاريخ حتى اليوم (من الجائز باستثناء النازيين) ؟ وما من مراقب للأمور يرقب أحوال العالم فى الوقت الحاضر بعين الجد ورغبة فى الوقوف على الحقيقة يمكن أن يتشكك ، حتى ولو أبسطَ الشك فى الحقائق الثابتة التى نوردها فيما يلى :

١ — إن النظام الاقتصادى للاتحاد السوفيتى قد أقيم على أكتاف ملايين من العبيد دون أن تكون لهم أية حماية على الإطلاق من الاستغلال فى أبشع صوره حينما كانت وزارة الداخلية هى من الناحية العملية المالكة والمستغلة لهؤلاء العبيد ، وأن هذا النظام ، على الرغم مما أدخل عليه من تعديل كبير ، لا يزال النظام الذى يجرى عليه العمل حتى اليوم .

٢ — وإن الاتحاد السوفيتى أقام نظاماً دقيقاً من المصانع ذات الملكية المشتركة ، وأنشأ المعاهدات التجارية ، ووضع لتحديد الأسعار وتداول العملة نظاماً تعسفياً ، واتبع غير ذلك من الأساليب والحيل ، ما مكّن له من امتصاص دماء شعوب أوربا الشرقية بما لم تجرؤ عليه أية إمبراطورية استعمارية فيما مضى .

هذه هى الحقائق التى لا قبل لأحد من الناس بالجدل فيها ، وكان جديراً بها أن تنفر كل اشتراكى على سطح الأرض من فكرة «المفاوضة»

مع الاتحاد السوفيتي . ولكنها للأسف لم تفعل ذلك ، ولا يزال كثيرون من الاشتراكيين يؤمنون فيما يبدو أنهم ما داموا يستطيعون أن يأكلوا قسطهم المعتاد من لحم الخنزير المقدد والبيض فى الصباح وأن يذهبوا لمشاهدات مباريات الكرة التى اعتادوا مشاهدتها ، فليس ثمة ما يمنع من بقاء العمال فى كوليما وفوركوتا وبودابست راسفين فى أغلال الاستعباد إلى أن يهلكوا ، أو ما يحول دون استنزاف دماء شعوب أوربا الشرقية حتى تبهت أجسامهم من فرط ما استنزف منها .

إنه وأيم الحق لمسلك بغيض ، ولكنه إلى جانب ذلك مسلك بعيد عن كل تبصر أو حيطة . قد يكون جميلا أن نتفاوض ، ولكن فيم نتفاوض ؟ إن أحداً من الناس لم يبين لنا حتى الآن ما نتفاوض فيه . ثم ما الذى يمكن أن يعطيه الاتحاد السوفيتى ؟ وماذا يمكن أن يأخذ ؟ ليس أمامنا والحالة هذه نظراً إلى افتقاد أى اقتراح فى هذا الصدد من جانب أولئك الذين يرددون شعار الدعوة إلى المفاوضة ، إلا أن نحاول التخمين ، فنفترض أنهم يعنون الحصول من الاتحاد السوفيتى على وعد بإقامة سلم حقيقى . وإذن فلنتقبل هذا الفرض لحظة أو لحظتين دون أن نبحث مؤقتاً فيما يمكن أن يكون لهذا الوعد من قيمة ، ونتساءل الآن : وما عساه يكون ثمن ذلك ؟ ماذا عسى يمكن للعالم الحر أن يقدمه للاتحاد السوفيتى ؟ شىء واحد هو الذى يستطيع أن يقدمه : هو الاعتراف الرسمى والثانوى بسيطرة الاتحاد السوفيتى الفعلية على نصف قارة أوربا . فإذا لم يكن أصحاب هذا الشعار يفكرون فى ذلك ففيم إذن يفكرون ؟ إننى لأخشى أن تكون سياسة

العالم الحر لاتزال تستوحى بضع كلمات مشئومة قالها سيرونستون تشرشل فى خطابه الشهير فى ١١ مايو عام ١٩٥٣ ، كلمات كان مما له مغزاه أن تلتقطها جريدة پرافدا وأن تعلق عليها على الفور . . وها هى العبارة التى وردت على لسان السير ونستون : « إننى لا أومن بأن مشكلة الجمع بين أمن روسيا وبين حرية أوربا الغربية وأمنها مشكلة تستعصى على الحل » . والآن لننظر إلى هذه العبارة مرة أخرى عن كثب ! فلقد تجردت كلماتها من كل إشارة إلى حرية أوربا الشرقية وأمنها ، ولم تشر فيما يتعلق بروسيا نفسها إلا إلى أمنها — دون ذكر لحريتها . وتدل كلمات هذه الجملة دلالة قاطعة على أنها أعدت بدقة التفكير ودقة التعبير التى عهدناها فى رجل يملك ناصية الحديث والكلام كالسير ونستون ، مما يجعلها أدعى إلى التطير والتشاؤم . وكم أحب أن أطمئن نفسى إلى أن تفاؤل المستر ماكيلان لا يستند إلى مثل هذا المسلك ، ولكن أنى لأى إنسان أن يطمع فى مثل هذا الأمل إذا كانت كل الدلائل تدل على عكس ذلك ؟ وها هو مايقوله مراسل التايمس اللندنية فى واشنجتون عن إشارة الرئيس أيزنهاور فى خطابه الذى ألقاه فى ٧ يناير عام ١٩٦٠ عن الاتحاد الأمريكى :

لم يكن لدى المستر أيزنهاور ما يقوله عن الخلافات الأوربية ، أو بعبارة أكثر تحديداً ، لم يكن لديه ما يخاطب به باريس فى شهر مايو . أما توكيداته المعتادة عن برلين الغربية فلم يرد لها ذكر إطلاقاً . وقد يرى المراقبون الأجانب نهاية سياسة « التحرر » فى عبارته التى تقول إن الولايات المتحدة « لا تعتزم التدخل فى الشئون الداخلية لأى

شعب من الشعوب » وإن كانت تنكر على غيرها أية محاولة لفرض نظامه عن طريق القوة أو التخريب .

إن حل النزاع الحالى بمثل هذا الأسلوب يكون معناه انتصار الاتحاد السوفيتى فى الحرب الباردة انتصاراً كاملاً شاملا . فهو حتما سيكشف للجماهير المناهضة للشيوعية فى جميع أرجاء العالم فى فرنسا وإيطاليا كما فى آسيا وأمريكا الجنوبية ، أن الدول العظمى الغربية مستعدة فى النهاية للتخلى عن أصدقائها من أجل هدوء (ولا أقول سلم) مع أعدائها . وطبيعى إلى جانب ذلك أن مثل هذا الحل يمكن دحضه على أسس أرقى من مجرد هذا الأساس النفعى الذى انتهينا من الإشارة إليه .

وإذا كانت مثل هذه المفاوضات كريهة وبعيدة عن التبصر والحكمة فهى كذلك مجدبة من أية نتيجة إيجابية للغرب بقدر ما تكون مجزية للشرق ، فإذا نفوذ السادة الشيوعيين قد ازداد وتوقفت كل مقاومة سرية فيما وراء الستار الحديدى . ولكن ماذا يمكن أن يحصل عليه الغرب فى مقابل كل ذلك ؟ — معاهدة بعدم العدوان ووعد بعدم مباشرة الدعاية الشيوعية فى الغرب ، كما لو كان الشيوعيون يبرون وعودهم شيئاً ! فلقد سبق أن وقَّع المستر مولوتوف عدداً من المعاهدات التى تعهدت فيها لدول البلطيق الثلاث بعدم العدوان عليها . ثم إن هى إلا فترة قصيرة حتى كان قد ابتلع هذه الدول جميعاً . وكذلك سارعت حكومته إلى الزج بزعماء المقاومة البولندية السرية فى غياهب السجون مدى الحياة ، بعد أن كشفوا عن أنفسهم بناء على اقتراح السير أنتونى إيدن ، وبعد أن

قطع لهم الكولونيل إيفانوف مندوب المارشال زوكوف فى وارسو عهداً على نفسه بألا يمسهم بسوء . نعم ، فإن وعداً يمده السوفيت معناه لاشىء ، وهذا هو كل ما يمكننا أن نحصل عليه من المفاوضة معهم .

وفى الوقت نفسه يستغل الاتحاد السوفيتى هذا التلهف من جانبنا على إجراء محادثات معهم إلى أقصى حدود الاستغلال ، فيفيد منه فى قسمة العالم الحر على نفسه ، بما يقوم به من مناورات ماهرة . وإليك ما يقوله أكبر الملقين السياسيين فى زمننا هذا فى هذا الموضوع :

« إن الخلاف الأساسى هو أننا مستعدون للتفاوض بشأن برلين ، بينما حلفاؤنا فى القارة الأوربية لا يريدون أن يتفاوضوا فى أى شىء من شأنه تغيير الوضع القائم .. وتعود جذور هذا الخلاف إلى مسألة الاعتراف بدولة ألمانيا الشرقية . فكل واحد يعلم أنه إذا تم التفاوض فى نظام جديد لبرلين الغربية — يضمن لها حريتها وحرية المرور إليها — فإن ثمن ذلك سيكون ، بطريقة أو أخرى ، الاعتراف الفعلى بدولة ألمانيا الشرقية . وبون وباريس كلتاهما تأبى أن تدفع هذا الثمن . أما نحن البريطانيين فإننا حسب تحليل الموقف الأخير على استعداد لأن ندفعه » .

ويخرج مستر ليبمان من ذلك بالحكم لصالح الاعتراف بدولة ألمانيا الشرقية ، وإن أقر فى الوقت عينه أن فى بلده أسلوباً آخر من التفكير وصفه على النحو التالى .

« ويتزعم هذا الرأى أعضاء حكومة ترومان السابقة ومستر ترومان نفسه ، وكذلك مستر أتشيسون ومستر بول نيتزيه . ونظريتهم فى ذلك

أن وضع برلين الغربية لا يمكن أن يكون موضوع مفاوضة، وأن السياسة الحكيمة التى يتعين على هذه البلاد (الولايات المتحدة) أن تتبعها هو أن نرفض كل بحث فى وضع برلين الغربية ، وأن نتحدى السوفيت أن يفعلوا أى شىء يمس هذا الوضع . وأصحاب هذا الرأى يعتقدون فيما يبدو أن الحكومة السوفيتية سوف يرهبها حزمنا ، فإذا لم يرهبها ذلك فهم مستعدون للاشتباك فى حرب « محدودة » .

وإنه لشىء خطير حقاً أن شخصية كشخصية المستر ليبمان التى تعتبر حجة فى شئون الصحافة الدولية تدحض هذا الأسلوب من التفكير فيما هو أهم مشكلة من مشكلات اليوم ، وأنه يبدو إلى جانب ذلك مقتنعاً بأن رأيه هو الرأى الذى يشاركه فيه أصحاب السلطة فى أمريكا . إذ الواقع أن الرأى الذى يدحضه ، رأى المستر ترومان والمستر أتشيسون ، وفيما يبدو كذلك رأى الدكتور أديناور والجنرال دى جول ، هو أكثر الآراء حكمة ، بينما الرأى الذى يأخذ به المستر ليبمان ويعزوه إلى بريطانيا والولايات المتحدة هو من الخطورة بحيث يصل إلى حد الكارثة .

لقد نشأت مشكلة برلين لأن المستر خروشوف تحلل من اتفاقية عقدتها روسيا بملء حريتها مع دول الأطلنطى الثلاث ، وكان تحلله منها بعمل من جانب واحد . فإذا أردنا اليوم أن نفاوض فى عقد اتفاقية أخرى معه فى نفس الموضوع فلن يكون ذلك إلا استسلاماً مقدماً لتعديلات وانسحابات دورية فى المستقبل . نعم ، فإننا حين نبغى « تسوية » معه فإنما نكون فى الواقع قد تجاهلنا الضغط الدينامى الذى

لا يكف عن الدفع وعن التقدم الذى تتميز به سياسة السوفيت الخارجية .

ومن ثم فإن من العبث أن نذعن اليوم على أمل أن نستطيع إيقاف العطب ، لأن العطب سيظل يطرد ، ويكون على العالم الحر أن يذعن مرة أخرى غداً ، لا كما أذعن بالأمس ، بل لأنه سبق أن أذعن بالأمس. لقد بدأت المسألة كلها بتسليم دول البلطيق مع ما انطوى عليه ذلك من هوان واستخذاء ، ثم ماتلا ذلك من عقد معاهدة الصلح البلغارية ، ثم لجنة لوبلين ، وحبس زعماء المقاومة البولندية مع ما كان ينطوى عليه ذلك من انتهاك السوفيت لكلمة الشرف التى أعطوها ؛ إلى ذلك الانسحاب من الألب ، فاغتصاب تشيكوسلوفاكيا ، فاستباحة المجر . . . وفى كل مرة من هذه المرات تراجع فيها مع الاحتجاج أولئك الذين كانوا يطلبون الوصول إلى تسوية وكانوا يؤمنون أن هذه سوف تكون آخر مرة يتراجعون فيها . ثم جاء تراجعهم التالى فكان كذلك « آخر » تراجع لهم .

على أن الموقف مع ذلك أسوأ بكثير من هذا التراجع ومن هذا السير إلى الوراء من حرية حقيقية إلى سلم زائف . إن مشكلة برلين لم تنشأ بالمرة لأن الموقف فى برلين الغربية قد أصبح بالنسبة للسوفيت موقفاً لا يطاق . إنه موقف شاذ ، ولكنه شاذ لأن السوفيت ، استطراداً للحنث بوعودهم ، قد أبقوا المنطقة الشرقية كلها فى موقف شاذ ، موقف تقوم فيه حكومة لا تزيد على أن تكون مجرد دمية تحكم من فوق الدبابات السوفيتية . أما شذوذ الموقف فى برلين الغربية فقد كان ولا يزال ، مجرد

ذريعة قصد منها ستر هدف مستر خروشوف الحقيق ، ألا وهو الاعتراف بالمنطقة الشرقية من ألمانيا دولة شيوعية .

وهذا الاعتراف له قيمة مزدوجة بالنسبة للاتحاد السوفيتى . فبمجرد اعتراف الغرب بالمنطقة الشرقية من ألمانيا يصبح من المحتم فى أية محاولة ، وفى كل محاولة ، لإعادة توحيد ألمانيا أن تكون « ألمانيا الشرقية » شريكة فيها على قدم المساواة مع الجمهورية الاتحادية ، ويصبح بعد ذلك فى مكنة الشيوعيين أن يقحموا على ألمانيا المتحدة توحيداً شاملاً موقفاً من تلك المواقف التى يشتركون فيها بسلطة السياسة مع أحزاب أخرى من الأحزاب التى مكنت لهم إخضاع الدول التوابع للحكم الشيوعى .

ومن ناحية أخرى فإن المستر خروشوف يهدف من وراء اعتراف الغرب بالهير أوبرخت إلى الحصول كذلك على الاعتراف الأدبى بجميع الزعماء الأذناب فى الدول التوابع الأخرى . صحيح أن هذه الدول قد ظفرت فعلاً باعتراف الغرب القانونى ، ولكن الدول الغربية مع ذلك ، على الرغم من كثير من الصمت والاحتشام فى هذا الميدان ، ظلت تضن بموافقتها الأدبية على هذه السرقة الكبرى . وصحيح كذلك أن البعض يزعم أن الاعتراف بالمنطقة الألمانية الشرقية ، وهو الاعتراف الذى يدبر الآن ، سيكون مجرد اعتراف بالأمر الواقع ، غير أن مثل هذا الاعتراف لا بد أن يتولد عنه شعور باليأس فى جميع أرجاء أوربا الشرقية ، وسوف يزيد قوة الاتحاد السوفيتى الفعلية من هلسنكى إلى بوخارست وبوادبست زيادة كبيرة .

ثم إن وجود دولة ألمانية حرة يهيىء لخروشيف ظرفاً يضفى على انتصاره بهاءاً ورونقاً ، لأن معناه أن الشعوب الغربية قد سوت بين دولتى ألمانيا ولم تعد ترى فى ألمانيا الاتحادية وحدها المتحدث باسم الشعب الألمانى كله ، وهكذا يذهب موضوع الشرعية مع الريح وتنتهى القضية التى من أجلها يجاهد الغرب .

إن ما يُطلب منا ليس التنازل عن هذا الموقع أو ذاك ، وإنما هو التنازل عن القلمة كلها . والواقع فى عالمنا الحديث قد أصبحت الآن أدنى فى أهميتها، إلى أن تكون معنوية أكثر منها عسكرية . وإذا كان انسحابنا إلى الغرب فى السنوات الماضية منذ سقوط هتلر مليئاً بالإحن والكوارث ، فإن تنازلنا عن الحرية الصحيحة فى سبيل صلح زائف سوف يكون أكثر تصديعاً للعالم وأشد وطأة عليه . فإذا نحن قبلنا الإعتراف بدولة ألمانيا الشرقية فلن نكون متراجعين فحسب ،بل نكون قد استسلمنا كلية ، وإلا فلأى شىء نجاهد ؟

ثم لماذا نذعن ونستسلم بالمرة ؟ وماذا عسانا نحصل عليه فى مقابل تسليمنا فى جوهر قضيتنا ؟ يبدو أن الجواب فى هذه الحالة سيكون : « هو الحصول على ضمان بحرية المرور وبحق المرور إلى برلين » . وإذن فلأشكرنك على لا شىء ، فلقد حصلنا بالفعل على هذا الضمان من قبل ، والسبب فى أنه يطلب منا أن نتفاوض هو أن الاتحاد السوفيتى لم يعد يعترف بهذا الضمان . ثم لماذا ننتظر منه أن يحترم ضمانه رقم ٢ بأكثر مما احترم ضمانه رقم ١-؟

ويتبقى بعد ذلك احتمال قيام حرب نتيجة لحادث يمكن أن يقع حول برلين . فإذا كان أولئك لذين يحبذون « تسوية » فى موضوع ألمانيا الشرقية يحبذونها لأنهم يخشون الحرب إذن فليقولوا ذلك صراحة وإنها فى الواقع لحجة ضعيفة . فليس أوضح ولا أقطع فى تاريخنا الحديث من أن العالم الشيوعى يهاجم كلما كان العدو مستعداً للتراجع أو المساومة، وأن يسحب قرونه إلى داخل رأسه كلما وقف العدو موقف المقاومة . ومن كان فى شك من ذلك فليسأل المستر نهرو . ولهذا فالواقع أننا إذا اعترفنا بألمانيا الشرقية فإن خطر الحرب سوف يزداد ، ذلك لأن الرادع الوحيد الذى يحول دون قيام حرب أوربية إنما هو خوف الاتحاد السوفيتى ، وبحق ، من أن تثور جميع شعوب أوربا الشرقية ضد الطغاة الذين استبدوا بهم عند أول طلقة . وهذا بالضبط ما يدفعها إلى محاولة القضاء على آمال الشعوب الشرقية .

وإذن فما أكثر ما نبدد من جهد فى الاتجاه الخاطىء عند الحديث عن التفاوض ! وحتى على فرض أن سياسة المفاوضات مع سادة الشيوعيين قد تؤدى إلى نتيجة ما ، فلماذا نكشف عن لهفتنا على التفاوض ؟ وهل يمكن أن يؤدى ذلك إلا إلى دفع الثمن الذى يتعين علينا أن ندفعه؟ وهل يستطيع المتحدثون عن هذه المفاوضات أن يظلوا صامتين أشهراً معدودات؟ ألا يرون أنهم بما يفعلون إنما يقودون العدو فى الصراع داخل الميدان الدولى فى الصراع الخفى الذى يجرى داخل روسيا نفسها ويتغلغل فى نفوس شعبها ؟ إن النظام الجماعى فى الاتحاد

السوفيتى قدأخذ يكشف عن كثير من مظاهر الإجهاد ، فلو سقط هذا النظام لكان معناه ، الحرية بالنسبة لروسيا والسلام بالنسبة للعالم . ومن ثم فإن من يتحولون إلى التفاوض مع روسيا إنما يحاربون ضد حرية روسيا وضد سلام العالم .

٢ — التعايش السلمى :

وكما يحدث عادة فى الكلمات التى يحملها الناس أكثر من طاقتها فإن هذه الكلمة — التعايش السلمى — قد أخذت تفقد صورتها وتنثنى من أطرافها ، وهذا القول ينطبق بطبيعة الحال على استخدام هذه الكلمة فى العالم الحر وحده . أما بالنسبة للشيوعيين فقد تحدد معناها نهائياً على لسان أحد آباء الكنيسة الشيوعية ، ستالين فى خطاب له أمام مؤتمر الحزب الشيوعى الخامس عشر فى سنة ١٩٢٧ . وإليك عبارته فى ذلك :

«ونحن لا نستطيع أن ننسى قول لينين: «إن عملية بنائنا تتوقف على حد كبير على الطريقة التى نؤخر بها حربنا على الدول الرأسمالية ، وهى حرب واقعة حتماً وإن كان يمكن تأخيرها إما إلى أن تتضح حرب البروليتاريا فى أوربا ، وإما إلى أن تبلغ الثورات فى الدول المستعمرة أوجها ، أو إما إلى أن يشرع الرأسماليون يحاربون بعضهم بعضا من أجل غنائمهم الاستعمارية . ولذلك يتعين علينا كواجب لا مفر منه أن نواصل علاقاتنا السلمية مع الدول الرأسمالية . فإن الأساس فى علاقاتنا مع الدول الرأسمالية هو فى قبول التعايش السلمى بين نظامين متعارضين » .

وإن الإنسان حين يقرأ مثل هذه التصريحات لايسعه إلا أن يعجب بالصراحة التى يعبر بها زعماء العالم الشيوعى من أعماق نفوسهم عن نوايا باطنة . فهم يَبْدون واثقين كل الثقة من حتمية أساليبهم إلى حد لا يخشون معه أن تقوم « الدول الرأسمالية » وقد أنذرت بما كشفوا عنه فتعيد تنظيم دفاعها طبقاً لذلك ، ولا بد من الاعتراف هنا بأن ما يجرى حول التعايش السلمى من شأنه فيما يبدو أن يبرر تفاؤلهم . وما من شك فى أن كلمات ستالين الكلاسيكية كانت تصاغ بصورة مختلفة فى عصر ما بعد الذرة ، فكان من الجائز أن يفرق بين الحرب الباردة والحرب الساخنة وأن يكون أقل جزماً فيما قاله من حتمية الحرب الساخنة ، مكتفياً بالتحدث فى عبارات أكثر تحديداً عن حتمية استمرار الحرب الباردة إلى أجل غير مسمى حتى تكون « الحرب البروليتارية » الأوربية والثورات الاستعمارية « قد نضجتا وحان قطافهما ، فذلك مما يطابق الحقيقة الواقعة ، وهى أن الظروف والأسلحة قد تتغير ، ولكن الصراع بين الشرق والغرب قد يبقى مستمراً وغير متغير فى جوهره . ولذلك فإن التعايش السلمى بالنسبة للشرق ، هو طريق لكسب الوقت ريثما تتم تسوية الحساب التى لامفر منها بين الرأسمالية والشيوعية .

فإذا أراد العالم الحر أن يرتفع بنفسه فوق هذا المجد من الدعايات كان المطلوب منه أداؤه شيئاً آخر ، كان المطلوب بياناً رسمياً تصدره دول الغرب العظمى ويكون فى عبارته من الوضوح بقدر ما كان عليه بيان

« حركة الجامعة الأوربية » الذى نشرته عقب مؤتمرها الذى عقدته فى « بادن — بادن » فى سنة ١٩٥٤ وجاء فيه :

« إن حركة الجامعة الأوربية تطالب بانتخابات حرة تجرى تحت إشراف دولى للشعوب التى تقع بين الستار الحديدى وبين الاتحاد السوفيتى كشرط سابق على السلام العالمى » .

صحيح أن بيانات فى هذا المعنى سبق أن صدرت على لسان ساسة الغرب من حين إلى آخر ، ولكن العالم لم يقتنع قط حتى الآن بأن المشاعر الداخلية والنوايا الباطنة كانت تكمن وراء عبارات هذه البيانات . والسبب فى ذلك أنه كثيراً ما كان يَعْقُب هذه البيانات مباشرةً خطبٌ من نوع أكثر تحرراً وأكثر انطلاقاً تطمس معنى الكلمات الرسمية ووضوحها . ولذلك فما دام أن إعلاناً بهذه القوة والقداسة بحيث يحمل الاقتناع إلى أفئدة الناس لم يصدر بعد ، فإن الشك واليأس لا بد أن يفعلا فعلهما فى خطنا الأمامى — وهو الخط الذى يفصل ما بين الشعوب وبين الحكومات فيما وراء الستار الحديدى .

٣ — أوهام فيما يتعلق بالصين :

والشرط السلبى الثانى لإبلال الغرب هو التخلص من كل وهم بأن فى الإمكان دق إسفين بين روسيا الشيوعية والصين الشيوعية وإلقاء هذه الأوهام داخل إطار الإهمال الذى هو مكانها الطبيعى . إذ لماذا تستطيع بريطانيا أن تثبِّتَ بذور الفرقة بين الصين والاتحاد السوفيتى

فى حين أن الصين ، حتى لو أرادت ، لا تستطيع أن تنبت بذور الفرقة بين بريطانيا والولايات المتحدة ؟ وما بنا من حاجة إلى دليل على أن قضية الحرب الباردة قد أضعفها وكسرت من شوكتها عند كل منعطف، تلك الأوهام التى تتسلط على بريطانيا بشأن الصين . وساعد على تسلط هذه الأوهامُ عليها (إن لم يكن السبب فى ذلك الاضطراب الذى يسود الرأى المالى البريطانى وهو يتأرجح بين الولاء والحكم الطيب على الأمور عند بعض زعماء هذا الحزب ، وبين قوة العاطفة والجشع عند البعض الآخر ، وبين المثالية الجاهزة ، والسلامية ، والارتماء فى أحضان اليسار، واصطياد الأصوات عند كثيرين غيرهم ، حتى لا تكاد فى الواقع توجد، مسألة واحدة من الشئون الدولية يمكن أن يقال عنها إن الرأى العالى البريطانى يبدى فيها تماسكا : فالصين يجب أن يسمح لها بدخول الأمم المتحدة لأنها من الناحية الفعلية حكومة . وفرموزا يجب أن تعطى للصين لأنها كانت متحدة مع الصين منذ القرن السابع عشر . ولكن إيرلندا فى الوقت نفسه يجب أن تستقل عن انجلترا على الرغم من أنها كانت متحدة معها منذ القرن السابع عشر . والصين الشعبية هى حكومة الشعب ، ذلك على الرغم من أن ٧٥ فى المائة من الأسرى الصينيين فى الحرب الكورية رفضوا أن يعودوا إلى الصين . وعلينا أن نتاجر فى السلع التى ينتجها الاتحاد السوفيتى على الرغم من أن إنتاج هذه السلع يجرى فى ظروف من الاستعباد لم يشهد لها التاريخ مثيلا . ولكن علينا فى الوقت نفسه أن نحمى العمال البريطانيين من العمال اليابانيين

الذين يعملون بأجور زهيدة ، كذلك علينا أن نسالم الاتحاد السوفيتى على الرغم من أن الاتحاد السوفيتى فى حرب دائمة مع أهله ، وعلينا أن نعقد مؤتمرات القمة ، ولكن علينا فى الوقت عينه أن نحذر شرور الدبلوماسية السرية ، وعلينا أن نفاوض وأن نصادق دكتاتوراً اسمه خروشوف ، ولكن علينا أن نناهض دكتاتوراً آخر اسمه فرانكو .

وهذه الفوضى التى يعيشها حزب العمال البريطانى هى أحد مواطن الضعف الرئيسية فى العالم الحر ، وهى تهيء للجناح الأيسر لحزب العمال — طريق أجهزة الانتخابات العامة وعن طريق الخوف من هذه الانتخابات من القوة ما يمكنه من خلال جناحه الأيمن ، من عرقلة حزب المحافظين وهكذا يستطيع هذا الحزب الانحراف بالسياسة الخارجية لدولة كبرى فى اتجاه عن مماوى عاطفى مشوش .

الموقف

١ — قوى الماضى

يتحدد الموقف التاريخى الذى انبثق من الحرب العالمية الثانية فى معظم جوانبه بما يدور اليوم بين الغرب وبين السوفييت من صراع وشقاق . فلقد ألفى الناس أنفسهم ، بينما هم فى طريقهم إلى تنظيم عالمهم ، منقسمين شيئاً من أثر صدع هو أعمق ، وفى الوقت عينه هو أبسط ما شهده تاريخ العالم . ان البشرية تسعى إلى تحقيق عالم واحد ، ولكن الشىء الذى يتبقى بعد ذلك هو : أيكون هذا العالم الواحد عالماً شيوعياً أم عالماً حراً ؟

وفى مؤخرة الصورة ، وهى فى الأصل صورة بسيطة بل هى قد تكون صورة بدائية ، يمكننا أن نتبين ضروباً من الألوان والجماعات تحولها من صورة بسيطة إلى صورة معقده يبدو فيها التعارض بين المذاهب المختلفة وقد زادته حدة التجمعات الإقتصادية للشعوب ، فترى محورَىْ العالم ، موسكو وواشنجتون ، وقد التفت حول كل منهما مجموعة من الدول التوابع شدت كل مجموعة منها إلى المركز الذى تسبح فى أفقه الاقتصادى ، وبين هذا المحور وذاك تبذل الكومنولث البريطانية جهودا لا يجانبها التوفيق لكى تحتفظ بمجموعة ثالثة فى حركة مماثلة ،

مجموعة إن كانت هى أقل تركيزا من المجموعتين السابقتين فهى قد لا تقل عنهما ثباتاً .

وتبرز من خلال هذا الإطار معالم موروثة من الماضى قد أخذ لونها يبهت ببطء ومعالم أخرى غيرها تتجه إلى مستقبل يحاول جهده أن يكون مستقبلا واقعياً . ففى إتجاه الماضى أخذت سياسة القوة تبهت أكثر فأكثر . فالمجموعات الثلاث — السوفيتية والأمريكية والبريطانية — لا تخرج عن أن تكون ثلاث إمبراطوريات تتعارض مع بعضها البعض . وإلى جانب هذه المجموعات الكبرى الثلاث تقوم إمبراطوريات أصغر شأناً تتحرك فتدفع أمامها قوات أخرى خاصة بها إلى الحركة . من هذه المجموعات ، الفرنسيون والصينيون والهولنديون والبرتغاليون والباجيكيون ، هذا عدا ما يحتمل أن يستجد عليها من شعوب أخرى أو من شعوب « عائدة » كاليابانيين .

فإذا نظرنا إلى شعوب أوروبا من ناحية موقفها من مجموعات القوى هذه ألفيناها تنقسم إلى عدة جماعات أكثرها حرماناً وأشدها بؤساً جماعة الشعوب التى تخضع فى الوقت الحاضر لكابوس الاحتلال السوفيتى ، وهى الشعوب التى ألقت بها إلى المارد السوفيتى الجبار ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، اتفاقيات طهران ويالتا وبوتسدام . وليس أمام هذه الجماعة ما تستطيع أن تفعله أكثر من أن تشقى وتأمل . أما الجماعة الثانيــة (سويسرا والدول الإسكندينافية) فهى تتألف من الشعوب الأوروبية التى لا مشكلة أمامها إلا مشكلة واحدة ، هى كيف

تقاوم «سَفْيِتَةَ» نفسها إنقاذاً لروحهامن الهلاك . وتأتى أخيرا مجموعة من الشعوب تهددها قوة السوفيت من جانب وتجتذبها اليها من الجانب الآخر مباهج سياسة القوة وما تغريه به مطامع الامبراطورية وما تجلبه من رضاء ذاتى ، وتشمل هذه المجموعة فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا والبلجيك وهولندا والبرتغال .

هذه هى صورة عالم الماضى الذى حق عليه الموت ، ولكنه مع ذلك لا يموت — لا يموت لأن الدول العظمى الثلاث ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والكومنولث البريطانى ، لا تفتأ تمارس لعبة سياسة القوة ، ومن ثم فهى لا تضفى على هذه السياسة البالية حيوية مستعارة . وما على الأنسان إلا أن يقارن لغة هذه الدول بأفعالها ، ولاسيما فى أوقات الخطر ، لكى يتبين أنه حتى هذه الدول العظمى الثلاث تدرك كل الإدراك أن سياسة القوة لم تعد سياسة يتقبلها الرأى العام فى أى ركن من أركان العالم ، ولا حتى بين شعوبها نفسها . فإذا جاء الوقت الذى يتعين عليها فيه أن تطلب إلى رجالها أن يضحوا بدمائهم لجأوا إلى اللغة الأخرى ، لغة المستقبل .

هذه هى الكذبة الأولى التى ظلت طيلة هذه السنين تخدم ، من الناحية العملية ، مصلحة الجانب السوفيتى فى الحرب الباردة ، إذ هيأت للاتحادالسوفيتى مايستطيع أن ينفى به عن نفسه تهمةالإمبريالية ، وجعلت هدفه من الحرب الباردة واضحاً بسيطاً إلى حد أن أكثر العقول فجاجة يستطيع أن يتبينه — ألا وهو «سَفْيِتَةَ» العالم كله ،ومن ثم أصبحت

كل خطوة يتخذها الاتحاد السوفيتى تبدو وقد أملتها رغبته فى تحرير طبقة البروليتاريا ، هذا فى الوقت الذى نجد فيه الشعبين الغربيين الرئيسيين اللذين لاهم لهما إلا أن يذودا عن نفسيهما وأن يدعما قوتيهما إذا استطاعا إلى ذلك سبيلا عاجزين عن أن يبررا سياستهما إلا على أساس أنها حملة صليبية ضد الشيوعية .

على أن حملة صليبية تشن على الشيوعية ليست هدفاً سلبياً فحسب ، ولكنها هدف ينقصه الوضوح أنقول ضد الشيوعية ؟ فليكن ، ولكن لماذا ؟ هل لأن الشيوعية نظرية ماركسية ؟ ألأنها نظام جماعى يرتكز على استبداد الحزب الواحد ؟ ثم هل هذه الحملة قصد منها بعبارة أخرى أن تكون دفاعاً عن أملاك الأقلية أم ذوداً عن حرية الجميع ؟ أما أنها حملة صليبية ضد الشيوعية بوصفها عقيدة ماركسية فهذا مالا يمكن أن يكون هدف الغرب الحقيق ، يعزز هذا الرأى أن ملايين من الإشتراكيين فى عالمنا الغربى قد انضووا تحت لواء هذه الحملة على الرغم من أن أكثرهم من الجائز لم يطلعوا على كتابات ماركس (تماماً كما يفعل ملايين من الكاثوليك الذين يشعرون بأنهم كاثوليك دون أن يكونوا قد قرأوا الإنجيل) .. فإذا كان الأمر كذلك فهل يمكن أن يكون هدف هذه الحملة هو الدفاع عن الملكية ، لاعن الحرية ، وأن هذه الحملة إنما تناهض الشيوعية لأن الشيوعية نظام جماعى يستند إلى استبداد الجماعة؟ فإذا صح ذلك فكيف يمكننا أن نفهم أحلافنا مع فرانكو وأمثاله ؟ قد يكون صحيحاً أن المرء فى أوقات الشدة لايتعمق فى بحث سجل حلفائه.

وسوابقهم غير أن الدولتين الغربيتين الكبرتين لم تقفا عند حد الاستسلام إلى التحالف مع فرانكو ، وأقرانه ، بل ذهبتا إلى أبعد من ذلك فمانقتهم واحتضنتهم ، أو فى كلمة واحدة قد ضحيتا باستراتيجية الحرب الباردة ، وهى حقيقة ، من أجل استراتيجية الحرب الساخنة ، وهى مجرد افتراض .

فالحرب الباردة صراع تسيطر عليه القوة المنوية ، فى حين أن الحرب الساخنة صراع تسيطر عليه القوة المادية ، والدولتان الغربيتان الكبيرتان تؤمنان بالقوى المنوية بأقل مما تؤمنان بالقوى المادية ، ومن ثم فهما تعملان يوماً بعد يوم على أن تضمنا انتصارهما فى حرب ساخنة جعلت القنبلة الهيد روجينية وقوعها أقل احتمالاً ، بينما تعملان مامن شأنه جعل هزيمتهما أكثر احتمالا فى حرب باردة تبتلعنا الآن فى دوامتها بالفعل .

وكان من أثر هذا الغرام بسياسة القوة الذى أصاب الشعوب الغربية أن جلب على الموقف عواقب وخيمة وبذر بذور الإحن للمستقبل . فهو من الناحية الأولى يبعد كل احتمال للتفاهم الصحيح ، سواء من ناحية العاطفة أو من ناحية العمل ، بين بريطانيا والولايات المتحدة ، وهى حقيقة تبدو أوضح ما تكون فى الجهات التى تتقابل فيها خطوط القوة البريطانية والأمريكية عند زاوية حادة ، كالصين وأسبانيا مثلا . فإن من الواضح الذى لا يحتاج إلى دليل أن سياسة بكين كانت تكون أقل شكاسة وخطراً على الغرب لو أن بريطانيا والولايات المتحدة

استطاعتا الوصول إلى سياسة مشتركة بينهما فى الشرق الأقصى . ولا يقل عن ذلك وضوحاً أن الاتفاقات التى وقعتها الولايات المتحدة مع فرانكو (لا مع أسبانيا بحال من الأحوال) إن هى من بعض نواحيها إلا مثل من الأمثلة على الصراع الذى يجرى بين الدولتين الكبيرتين الغربيتين للتفوق فى البحر والجو .

٢ — قوى المستقبل

حَسْبنا هذا القدر عن قوى الماضى التى لا تزال تعمل فى ميدان الشئون الدولية حتى يومنا هذا . على أن هناك قوى أخرى غيرها تنزع إلى خلق مستقبل أقل سخفاً من الماضى . وهذه القوى تهدف إلى التعبير عن التضامن الواضح الذى يوجد بين جميع البشر فى أرجاء كوكبنا عن طريق النظم والقواعد وأساليب الحياة . هذه القوى هى هى التى أدت إلى قيام عصبة الأمم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وهى هى التى أدت إلى إنشاء هيئة الأمم المتحدة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . ومع أن الروح التى أملت إنشاء هاتين المنظمتين كانت روحاً تستهدف الخير فقد كانتا فى فكرتهما تقومان على سذاجة مفرطة . إذ كيف يمكن أن يحكم العالم كله عن طريق مجلس ضخم تستعصى قيادته بل هو أقرب إلى أن يكون شبيهاً ببرج بابل منه مجلساً عائلياً — وهو ما يجب أن يكونه — يجتمع لينظر فى شئون أسرة الشعوب ؟ ومع ذلك فإن الدنيا لم تكن فى ذلك الوقت يعوزها النصح السليم . فلقد اقترح السير ونستون تشرشل وقتها فى أحد الخطب الكبرى ، والحرب العالمية الثانية لا تزال قائمة ،

إنشاء مجالس قارِّية للإشراف على شئون كل من أوربا وآسيا وأفريقية وأمريكا ، وأن يهيمن عليها جميعاً مجلس ينسق بينها . وإن افتقاد هذا «الرسي» الأولى فى تنظيم شئون العالم لهو ولاشك السبب الأول فى أن هيئة الأمم المتحدة قد أصبحت أصعب من أن تساس . فلقد كان من الواجب البدء بإنشاء أربعة مجالس محلية أو خمسة ، وقد لا يتعين أن تكون كلها على أساس قارى ، ثم التنسيق بين عملها عن طريق مجلس عالمى على نحو ما اقترح السير ونستون .

وعلى أية حال فإن من الواجب أن نذكر أن الدول الكبرى إلى جانب سياسة القوة التى لا تزال تمعن فيها ، تشعر اليوم بأن الرأى العام فى بلادها قد أخذ يدفعها إلى انتهاج سياسة أخرى ، سياسة لا تختلف عن نهجها الذى اعتادته فحسب ، بل هى قد تكون على نقيض من سياسة تستهدف ربط شعوب العالم بعضها ببعض فى إطار من الحرية . وهذا الجانب التحررى من هذه النزعة أمر لاغنى عنه ، إذ الواقع أن هناك نزعتين تتنافسان على الميدان ، كلتاهما تحاول تنظيم جميع البشر على أساس عالمى : الأولى هى التى انتهينا من الإشارة إليها توا ، والثانية تتزعمها موسكو ، الأولى نزعة شمولية خالصة تحدد معالم حركة عميقة تدفع الإنسان (بصفته الفردية والجماعية على السواء) فى اتجاه تطوره الطبيعى فى اتجاه دولة تزداد على الدوام قرباً من النزعة الروحية . إنها حركة تتحسس طريقها نحو مجموعة من الروابط تتفاوت من رابطة الأشخاص فى نطاق الأسرة الواحدة إلى رابطة الشعوب فى نطاق المجموعة العالمية ومن ثم فهو الاتجاه التحررى الإنسانى .

وقد رأينا من قبل كيف يتعثر هذا التطور فى طريقه وتحول بينه وبين اطراد تقدمه الأحقاد القومية والإمبريالية التى تجعل الإنسان أسير الوحش الكامن فيه ، وتستثير غرائزه القطيعية فلا تلبث أن تستدرجه مرة ثانية إلى هذا الوحش كلما حاول الإفلات من قبضته . ثم لا يلبث هذا الانتكاس الذى يعوق التطور الطبيعى للإنسان أن يدفع بالبشر إلى حياة الغابة ، فإذا ترك وشأنه دفع بهم إلى ما يشبه حال قطيع من الوحوش الجماعية الضارية التى تسمح لغيرها من الوحوش الضارية التى لا تقل عنها قوة وبأساً بأن تعيش إلى جوارها ، لا شئ إلا لكى تسمن وتزداد شحماً ولحماً لكى تنقض عليها كلما سنحت الفرصة .

وفى الجانب الآخر من الصورة يلقى التطور الطبيعى المحرر للبشرية انتكاساً آخر لا يقل شدة ولا خطراً عن الانتكاس فى الجانب الآخر ، حيث النزعة هنا لا تتعارض مع الشمولية بل تعززها وتساندها مع فارق واحد ، هو أن الشيوعية بدلاً من أن تقود المجتمعات البشرية إلى وضع القطعان ، أو جماعات الوحوش الضارية ، تعمل على طحن هذه الجماعات حتى تذرها أكواماً من الرماد ، ثم تحاول أن تجعل منها كتلاً بشرية تشبه كلها بعضها البعض دون أن يكون للأفكار أو العواطف سبيل إليها غير ما تحدده لها السلطات العليا . وهكذا نجد فى أحد الجانبين انتكاساً إلى الحيوانية هو وليد الشيوعية . وبين هذا وذاك ، بين الجناح الأسود والجناح الأحمر ، يمكننا أن نتبين حركة إنسانية متحررة تتجه

إلى تنظيم البشر فوق سطح الأرض جميعا تنظيماً أساسياً يرتكز على أسس طبيعية .

٣ — الإيمان

وإن أهم ما يحتاج إليه الموقف اليوم لهو هذا الإيمان بتطور البشر التحررى ، وهو تطور لا يمكن أن يكون سوى الحرية للجميع ، لجميع الرجال وجميع الشعوب . وإذن فإن قضية الغرب إن هى إلا تلك التى تستهدف فوز الحرية فوزاً عاماً شاملا ، وإن تساءل بعضهم : ماذا تقول ؟ الحرية؟ الحرب ؟ أما قضية الشرق فهى تهدف إلى « سَفْيَتَةَ » العالم أجمع ، وإن كانت لا تعنى بالضرورة حرباً ساخنة . ولهذا فإن الحرب الباردة ستظل أمرا لا مندوحة عنه إلى أن تنتزع من الحزب الشيوعى قوته السياسيه فى العالم طرا . وهذه النتيجة ليست وليدة اختيارنا قضيةَ الحرية والتحرر غايةً لنا بل هى نتيجة اختيارهم « سفيتة » العالم هدفاً يسمون إلى تحقيقه . ولكن لماذا أراك تشيح بوجهك ؟ إن دنيا الشعوب الحرة والشعوب التى تتوق إلى الحرية فى البلاد التى غلبتها الشيوعية على أمرها ، كلاهما لن يعرف للسلم طعماً مادام الحزب الشيوعى يسيطر على نصف أوربا ، بل إن سلمهم سوف يظل مهدداً مادام الحزب الشيوعى يتحكم فى روسيا نفسها . هذه هى الحقيقة الصارمة التى يتعين علينا أن نواجهها .

إن كل احتمال فى قهر الحزب الشيوعى بشن حرب على روسيا قد

تبدد يوم طلب إلى جيش أيزنهاور أن يعود إلى بلاده . وهذا الاحتمال لن يعود مرة أخرى . والأمل الوحيد الآن فى إحراز نصر على الحزب الشيوعى هو فى تفكك الإمبراطورية التى بناها هذا الحزب لنفسه ، وهو حدث غير مستحيل وقوعه بحال من الأحوال . على أنه إذا كان من الممكن أن يقع هذا التفكك من تلقاء نفسه (والدلائل على ذلك غير مفتقدة) فإن من الواجب أن يساعد الغرب بأعماله على تنشيط وقوعه .

وهذه الأعمال لا بد أن تظل على غير هدى ، وأن تكون عديمة الجدوى إذا هى لم يغذها ويوجهها الإيمان . وإذن فعلى الغرب أن يؤمن إيماناً راسخاً بالحرية ، وأن يظهر زعماؤه أنهم هم كذلك يؤمنون بها ، ولكنهم لكى يفعلوا ذلك لا بد لهم من عدد من الإجراءات الإيجابية .

٤ — إعلان الأهداف

ولهذا وجب على الغرب أن يعلن فى وضوح وبطريقة رسمية أن هدفه الذى يسعى إليه هو الحرية لجميع الشعوب ولجميع الذين يعيشون فوق هذه الأرض . كذلك عليهم أن يعلنوا فى صراحة مماثلة أن هذه الحرية هى الهدف الذى يبتغونه ، ويعملون على تحقيقه بخطوات متدرجة خطوة فى إثر خطوة . وليس فى ذلك ثمة ما يحمل أية دولة من الدول التوابع على افتراض أن الجيوش الأمريكية سوف تدخل براج أو وارسو بعد انقضاء شهر واحد على إذاعة هذا الهدف ، فإن بياناً يفصل الأهداف ليس خطة عسكرية ، وإنما هو عهد ، إنما هو دستور نهتدى

يهديه فى كل سلوك لنا فى المستقبل . ثم ثمة نقطة أخرى . ذلك أن القول الذى يتردد على أسماعنا عادة بأنه لاينبغى لناأن نحيي آمالاً كاذبة فى نفوس شعوب الدول التوابع ، هو قول يكاد يبلغ مبلغ الإهانة لتلك الشعوب ، فهم يعلمون أكثر من الغربالأخطار التى تصيبهم منجراء ثورة قبل الأوان .

ومع ذلك فإن إذاعة أهداف الغرب على هذا النحو سيكون لها أثر عاجل ودائم . فهذه الشعوب التى طالما شعرت بأن الغرب قد نسيها أو تناساها كلما استمعوا إليه وهو ينادى «بالمفاوضة مع روسيا » سوف تنتعش آمالها وتعود إليها الحياة مرة أخرى بقدر ما يفقد دعاة الفتنة فى موسكو الثقة فى نفوسهم ، فلا تلبث الحرب ، الحرب الساخنة ، أن تنحسر بدلاً من أن تقترب .

وهنا نستمع إلى الاعتراض الذى يتردد عادة فى انجلترا ، وكذلك فى الولايات المتحدة ، وهو أن الغرب بهجومه على هذا النحو على الطرق الأمامية إنما يكون فى الواقع قد عمل على لم شمل القطاعات المنقسمة على نفسها داخل الاتحاد السوفيتى وجمعها صفاً واحداً خلف حكومتها . بل لقد ظل هذا القول الحجة القياسية التى يتقدم بها أولئك الذين يعارضون فى بريطانيا وأمريكا أية إجراءات تتخذ ضد فرانكو .

هذا القول الواحد من أخطاء الأنجلوسا كسرن الطرازية لأنه يضفى على الأسبان والروس ظاهرة من ظواهر الخُلق البريطانى هم فى الواقع

أبعد ما يكونون عن أن يتصفوا بها . هذه الظاهرة تتمثل فى الشعار الذى يقول « خطأ أو صواب فهو بلدى على أية حال » . إن من بين الشعوب من تسمو مشاعرهم القومية على كل اعتبارات أخرى. وهذا هو الحال بين الشعوب الأنجلوسا كسونية ، الأمر الذى لا ينطبق على الروس أو الأسبان أو على الفرنسيين أو الإيطاليين الذين تنزع مسائل العقيدة أو المبدأ عندهم إلى أن تكون أكثر وزناً من اعتبارات الوطنية .

بل الغرابة كل الغرابة هى أن السياسة التى تجنح أكثر من أية سياسة أخرى إلى توحيد الشعب الروسى صفاً واحداً خلف الحكومة السوفيتية هى سياسة « دعنا نتفاوض مع الروس » . فإذا كان الغرب يقدس سادة الشيوعيين ويعتبرهم قياصرة ، فقد يفقد الشعب الروسى كل أمل فى التخلص منهم وينتهى به الأمر إلى الاستسلام والخضوع لإرادة القضاء .

ولذلك فإن السياسة الصائبة إنما هى فى دق إسفين فى الفجوة التى تفصل الحزب الشيوعى فى الوقت الحاضر عن الشعب الذى يستبد به هذا الحزب ، وفى أن نعرض على الشعب ، لا على أولئك الذين يستبدون به الأمل فى سلام صادق ، وتحالف فى سبيل الأهداف السلمية ، وعون مالى ، وتبادل تجارى ، وحرية فى التعامل .

٥ — حرب باردة نشيطة

ومعنى هذا طبعاً أنه لا ينبغى للغرب أن يسمح للحرب الباردة بأن تظل حكراً فى أيدى السوفيت . فإن الجهود المتواضعة التى تبذلها إذاعة أمريكا ، على ما تستهدفه من قصد طيب ، تكادفى الوقت الحاضر تكون الرد الوحيد على أعمال موسكو التى لا تفتأ تزداد قوة ونشاطا . أما غير ذلك فالغرب مستعد دائما إلى التحدث ، وإلى التفاوض ، وإلى الوصول إلى اتفاق ، وهو دائمامستعد لأن ينسى الإهانات ، وأن يتناسى الطيارين الذين تسقطهم هجمات السوفيت دائما فى ظروف مشينة ، وأن يسمح للرأى العام الغربى بالتردى فى حمأة الاستبشار بقبول ما يبيعه لهم المستر خروشوف من وعود بالسلم .

إن على الغرب أن يتجه بالحرب الباردة صوب الشرق بنفس النشاط الذى يشنها به السوفيت صوب الغرب . إن النظام الشيوعى نظام هش ضعيف ، ومع ذلك فما من جهد بذل أو محاولة عملت حتى اليوم لدق إسفين بين الحزب الشيوعى والشعب الروسى . ولقد كان للغرب فى اضطرابات برلين ، وفى اضطرابات فوركوتا ، وفى التوترات القومية داخل الاتحاد السوفييتى ، وفى المقاومات المناهضة للشيوعية فى البلدان التوابع التى يستغلها السوفيت ، التى تكشفت فى الاضطرابات التى وقعت فى برلين الشرقية وفى بوزنان وبودابست ، فرصة ذهبية أضاعها فذهبت هباء منثورا . بل لقد ذهبت هيئة الإذاعة البريطانية إلى حد

محاولة إقناع الزعماء الروس بأن بريطانيا تتوق إلى صداقة أولئك الذين ينزلون أشد العقاب بأولئك الذين يستمعون إلى إذاعتها ، واستمرت تفعل ذلك سنوات وسنوات .

على أن الإعلان عن أهداف الغرب ، بالصورة التى رسمناها هنا ، سيضيع معظم أثره بلا شك ، لو أنه اقتصر على مجرد الكلمات الجوفاء ولا سيما أن تحرير الشعوب التوابع التى تتحرك فى فلك الاتحاد السوفيتى لن يتحقق على الفور . ومن ثم كان الواجب يقتضى أعمالا ملموسة يدعم بها الغرب كلماته .

فشعوب أوربا الغربية ليست وحدها الشعوب التى هى فى حاجة إلى تحرير ، ولا بد لتحريرها من أن ينتظر وقته الملائم بالضرورة ، ولا يجوز لنا ونحن فى صدد العمل على تحريرها أن نطلق عنان القنبلة الهيدروجينية . إن فى استطاعتنا أن نبدأ بعملية التحرير على الفور داخل الغرب إذا اتخذنا من الوسائل ومن النظم ما يكفى للتعامل مع القارات الأخرى — آسيا وأفريقية وأمريكا الجنوبية — وإن التطورات الأخيرة التى حدثت فى هذا الصدد لهى ظاهرة تلقى كل ترحيب .

٦ — نظم العالم الحر

ولا بد لتحقيق ذلك من وضع برنامج أكثر تماسكا يتألف من قرارات متماسكة . ويستحسن أن تكون أولى هذه القرارات إقامة تحالف قوى على نفس الأسس التى يقوم عليها حلف شمال الأطلنطى من

الشعوب التي تستمتع بحريتها فعلا . فمن شأن ذلك أن يتطلب وضع معايير للحرية الداخلية — لا لتلك العبارات التقليدية الرنانة بشأن حقوق الإنسان ، ولكن مجموعة محكمة محددة من قواعد عملية تتكون مثلاً من : حكومة تقوم برضاء المحكومين ، وحرية الرأى والاجتماع ، وحرية الإعفاء من الحبس التعسفى ، وقضاء مستقل .

ثم تعمل هذه المجموعة من الشعوب المتحالفة على إقامة عدد من الهيئات التي تسمو على الاعتبارات القومية . منها على سبيل المثال :

لجنة دائمة لتراقب سير عمل الأنظمة السياسية فى الدول الأعضاء ، بقصد التأكد من أن رعاياها يستمتعون بالحرية التى حددناها فيما سبق .

لجنة دائمة تكون مهمتها الإشراف على شئون التجارة مع الدول الشيوعية ووقف كل تجارة مع تلك الدول إذا دعت الضرورة .

مصرف يستمدمواردہ من رءوس الأموال الفائضة فى الدول الأعضاء بقصد استثمار هذه الأموال فى الخارج بما يسمح للشعوب التى هى فى حاجة إلى المال باقتراضها دون أن يكون اقتراضها لهذه الأموال مقيداً لها بقيود سياسية . ويجب أن يعمل هذا المصرف كذلك على تدويل بعض المعادن المعينة الضرورية للحرب — مثل اليورانيوم والبترول — وأن يعد المدة كذلك لتدويل الطيران بأنواعه ، وأن ينشىء سجلاً من الخبراء حتى يمكن توفير خدماتهم للشعوب التى تحتاج إليها دون أن

يكون فى ذلك ما يقيد هذه الشعوب بأية قيود سياسية .

ومن شأن هذا المصرف أن يقوم كذلك على تنظيم جميع العمليات الحرة التى لا يكون فيها رأس المال والعمل منتمين كليهما إلى نفس الراية وقد يترك هذا المصرف معظم استثمارات رءوس الأموال للسوق الحرة ولكنه سوف يضع فى الوقت نفسه معايير للمقاييس الوضعية ويشدد على احترام الدول المقترضة التى يحتاج إليها العالم أشد الحاجة فى ظروف علاقاته الدولية الحالية .

٧ — أسيادة أم سلطان ؟

ولقد أسمع من يعترض علىّ فيسألنى : ما هذا الذى نقول ؟ أليس فيما تقول تنازلاً عن سيادتنا القومية ؟ والجواب على ذلك : نعم . قد يكون الأمر كذلك فى بعض الحالات ولكنه مع ذلك سيكون تدريجيا ومع ذلك فإننا نعطى هذه الناحية أكثر مما تستحق من اهتمام . فإن ما تحتاج إليه هذه الهيئات التى نقترحها إنما هو قبل كل شىء قسط أزيد من السلطان وأقل من السيادة فإن عُدة المنظمات الدولية الحالية والدول العظمى من السلطان هى فى الواقع قليلة إلى حد يثير الرثاء ، وإنها فى الحق لحالة محزنة إذ لاشك أن العالم كان يكون مكاناً أصلح مما هو الآن لو كانت الولايات المتحدة وبريطانيا تلقيان حقهما من الاحترام فى كل مكان . ولكنهما لا تلقيانه — على الأقل لاتلقيانه إلى الحد الذى يجب أن يكون لهما — وهما تستطيعان أن تجعلا لنفسيهما صوتاً مسموعاً

لأن لهما قوة اقتصادية وعسكرية لها وزنها ، لا لأن ما يصدر عنهما يحمل معه دائماً إقناعاً أو يستحق موافقة الرجال من ذوى النيات الطيبة .

إن على الأمة التى تستخدم فى مجالات الشئون العالمية أن تسترد ما كان لها من قوة ، حتى تعود عبارات الحرية ، والسلام ، والعدالة فتعيد ما كان لها من معنى فى نفوس ذوى القسط . كذلك المنظمات الدولية يجب أن تصبح شيئاً أكثر وزناً مما هى الآن — بضع أوراق من شجر التوت تستر عورة ما أسمته جريدة التايمس مرة (فى موعظة وجهتها للولايات المتحدة) واقعيات القوة .

نزع السلاح

١ — سابقة .

فى يوم ١٨ سبتمبر عام ١٩٥٩ ، فى خطاب ألقاه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة وأذيع على العالم فى ثلاثين لغة مختلفة ، عرض المستر خرشوف على البشرية حمله نزع السلاح نزعاً كاملا شاملا فى مدى سنوات أربع. ولم يكن المستر خرشوف أول زعيم سوفيتى يفاجئ العالم بمثل هذا المشروع الطموح المثير للناس . فلقد أتيح لى بعد سنوات خمس قضيتها رئيساً لقسم نزع السلاح بعصبة الأمم سنة (١٩٢٢ — ١٩٢٧) أن أكون حاضراً اجتماع العصبة ، بوصفى المندوب الأسبانى الأول ، حين وقف المستر ليتفنوف فى فبراير ١٩٣٢ ليقدم لمؤتمر نزع السلاح فى جنيف مشروعاً شديد الشبه بذلك الذى عرضه المستر خرشوف على الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٥٩ .

وعقدت الدهشة و قتها ألسنة مندوبى الدول العظمى وأذهلتهم ، سواء من ناحية عمق الموضوع أو من ناحية الطريقة التى تقدم بها المستر ليتفينوف باقتراحه . وانبريت ، بعد خطاب فذ ألقاه أحد مندوبى اليونان ، المستر بوليتس ، لأرد على المستر ليتفينوف بما يطابق واقع السياسة الدولية ، السياسية الإيجابية العملية ، سياسة العالم كما تجرى

يوماً بعد يوم . وقبل أن أبدأ ردى قصصت على المؤتمر قصة مؤتمر عقدته الحيوانات للنظر فى نزع أسلحتها ، وكنت قد فرغت على التو من قراءة تلك القصة التى كتبها سياسى إنجليزى (إذا لم تخنى الذاكرة) لم يكن إسمه وقتها من الأسماء التى تظهر كثيراً فى عناوين الصفحات الأولى من الصحف — ألا وهو المستر ونستون تشرشل .

فلقد استقر رأى الحيوانات يوماً على أن تنزع سلاحها فعقدت لذلك مؤتمراً خاصاً . وقام النسر ، وهو يركز عينيه على الثور ، ليقترح انتزاع جميع القرون . وتلاه الثور وهو يغمز بعينيه فى اتجاه النمر ، ليقول أن من رأيه تقليم جميع المخالب . وقام النمر من بعده ، وهو يحدج الفيل ببصره ، ليقول إن الأنياب جميعاً يجب أن تنتزع انتزاعاً أو على الأقل يجب أن تُقَصر تقصيراً ملحوظاً . وانتفض الفيل واقفاً وهو يحملق فى النسر ويقول إن من رأيه أنه لابد من قص جميع الأجنحه . وهنا انتصب الدب واقفاً وهو يدور بعينيه فى جميع إخوانه الحاضرين ويقول « لماذا كل أنصاف الحلول هذه التى سمعناها ؟ لنلق جانباً بجميع أسلحتنا حتى لا يقف شىء فى سبيل عناق أخوى شامل بيننا » .

وفى الوقت الذى كنت ألقى فيه ردى على المستر ليتفينوف كنت قد خلفت وراء ظهرى سنوات طويلة من الحسرة وخيبة الأمل بما لا يدع لى سبيلاً لأن آخذ الاقتراح السوفيتى إلا على أنه قطعة من الدعاية العقيدية ، لُفّتْ فى غلالة رقيقة براقة لتخفى حقيقة معالمها . لقد شهدت قبل ذلك كيف تتكاثر اللجان وتتعدد وتتفرع إلى لجان أخرى فرعية كلما كان هناك ما يأمل الناس تحقيقه وأريد به أن ينتهى إلى لاشىء .

بل لقد شهدت إحدى اللجان العسكرية مرة وهى تعلن فى وقار وقد سية أن الخشب والصلب اللذين يستخدمان فى عمل البندقية هما من العتاد الحربى ؟ أما البندقية نفسها فليست عتاداً حربياً . واستطعت بعد عمليات حسابية قمت بها بينى وبين نفسى إذ ذاك أن أؤكد للجنة البحرية الفرعية أنها بعد تسعة أشهر من العمل المتواصل ، أو على أية حال بعد تسعة أشهر من الكلام ، قد استنفدت من أوراق عصبة الأمم ما يكفى الوفد البولندى أن يقفل عائداً من جنيف إلى وارسو وهو يخطو بأقدامه طول الوقت فوق الأوراق التى دبجت عليها تقارير اللجنة .

لمَ ياترى هذا الفشل المتواصل ؟ هل كان مرده عناد الحكومات المختصة وتعارض مصالحها ؟ أم هل هى مشكلة نزع السلاح نفسها قد استعصت على كل حل ؟ .

٢ — الأسلحة إن هى إلا أدوات

وقد يكون الرد على ذلك أنه لاتوجد إطلاقاً مشكلة اسمها مشكلة نزع السلاح ؟ أو بعبارة أخرى ، أن المشكلة التى تكمن وراء عبارة نزع السلاح هى فى الواقع مشكلة لاعلاقة لها بأى عمل من أعمال النزع .

وقد يتضح معنى ذلك إذا تناولنا بالبحث الظاهرتين الرئيستين للأسلحة . وأولاهما أن الأسلحة ليست هدفاً فى حد ذاتها ولكنها مجرد وسيلة أو أداة ؟ وثانيتهما أن الأسلحة هى فى جوهرها شىء نسبى بمعنى أن قيمتها الحقيقية لأى شعب من الشعوب تتوقف على أسلحة الشعب الآخر الذى يتربص به الشعب الأول .

الظاهرة الأولى واضحة إلى حد كبير ، ولكنها مع ذلك كثيراً ما تهمل ؟ هذا إذا لم تغفل إغفالاً تاماً . فالشعوب لاتسعى إلى الأسلحة بمثل ما تسعى به إلى المال أو الغذاء أو الصحة . بل تنظر إلى الأسلحة على أنها عبء ومصدر أرباح وتتقبلها على أنها شر لابد منه . ويستتبع ذلك أن تكون الطريقة الوحيدة لنزع السلاح هي إزالة السبب الذى يجعل هذا الشر وهذا الإزعاج الذى يسبب التسلح أمراً لامفر منه .

وقد يكون من المفيد فى هذه الرحلة أن نعقد مقارنة بين مجموعة عالمية من الشعوب وبين مجموعة قوية من الرجال ففى كلتا الحالتين قد يتعرض السلم للخطر كلما تعارضت الإرادات غير أن تعارض الإرادات فى نطاق الشعب الواحد لايقوم وحده سببا كافيا للقضاء على سلم هذا الشعب أو حتى تهديده . وحين يكون الحكم فى هذا الشعب حكماً صالحاً يقوم فى ظلال نظم تحررية ديمقراطية ، بما فى ذلك قضاء حر مستقل ؟ وصحافة حرة يقظة ، فإن تعارض الإرادات قد يصبح قوة إيجابية خلاقة ؟ بل قد يطلق له العنان دون ن يكون فى ذلك ما يهدد أمن الشعب وسلمه بل إن فى استطاعتنا أ كثر من ذلك أن نقول إنه كلما كانت النظم القومية أ كثر تقدماً ؟ وأشد صلابة ورسوخاً ؟ وأ كثر احتراماً بين شعب ديمقراطى حر متحرر ، كانت الحاجة إلى هذه الأسلحة أقل فى تنظيم العلاقات بين أفراده ؟ بل وفى تنظيم العلاقات بين أفراده ، وبين رجال الشرطة . بعبارة أخرى إن نزع السلاح فى هذه الناحية يعتبر مقياساً لمدى تقدم جماعة من الجماعات فى مجال الحضارة .

فإذا انتقلنا من المجموعة القومية العالمية للشعوب ألفنيا السبب الذى يجمل من الأسلحة شراً لا بد منه أ كثر وضوحاً ؟ ذلك لأن الصراع بين الإرادات المتعارضة يسير على غير هدى بالنظر إلى انتقاد النظم العالمية الكافية التى تستطيع بما لها من قوة أدبية أن تكبح جماح الشعوب الفردية ، إذ لن يكون الولاء لمجموعة الشعوب العالمية فى هذه الحالة ؟ أو بعبارة أخرى الولاء لوطن الأوطان جميعاً كافياً للموازنة بين القوميات المتعددة أو لربطها والسمو بها . ومن ثم فقد اضطرت شعوب العالم إلى اتباع سياسة تعتمد على القوة المحضة ؟ مما قد يعرضها لخطر وقوع الصراع بين بعضها البعض . وموقف كهذا لا بد أن يؤدى حتماً إلى التسلح .

ولذلك فكل محاولة لنزع السلاح لا بد بالضرورة أن تنتهى إلى فشل محقق . إذ من ذا الذى يلقى بعدته والعمل لم ينته بعد ؟ إن الشعوب لا تتسلح لأنها تريد الحرب ، فليس على سطح الأرض كلها شعب واحد يبلغ به الجنون حد طلب الحرب . ولكنهم جميعاً مع ذلك يريدون ما يريدونه غير مبالين فى سبيل الحصول عليه إذ هم داسوا على أقدام شعب آخر . وفى هذا التنافر الممكن ، بل هذا التنافر المحتمل بين أهدافهم المتعددة يكمن الخطر الذى يتحصنون منه بالالتجاء إلى التسلح .

وليس هذا كل ما فى الأمر . إذ لما كانت طبيعة البشر على ما هى عليه فإن الشعوب لا تكتفى بالتطلع إلى تملك فاكهة القوة الناضجة ، بل تسعى كذلك إلى الاستمتاع بزخرفها ؟ وبصفة خاصة بما تضفيه عليهم

من سطوة وهيبة . والهيبة فى جوهرها شىء يقوم على التنافس ، فكلما زاد نصيبك منها قلت فرص غيرك فى الحصول على القدر الذى يريده منها لنفسه . إنها كنسب الارتفاعات بين قمم الجبال . فقد كان هناك وقت فيما مضى كان يتعين فيه على أية دولة أن تمتلك بارجة حربية واحدة على الأقل لكى تنتظم فى عداد الدول الكبرى . أما الآن فقد تغير الزمن وأصبح لزاماً على الشعب إذا أراد ذلك أن يمتلك القنبلة الهيدروجينية ؟ تماماً كما يتعين على الرجل المهذب أن يمتلك قبعة عالية . لقد كان المستر خروشوف يلوح بشاله الأحمر وهو يتحدث إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة على الرغم من استخفافه السابق بإرادتها فى مسألة المجر ؟ معتمداً فى ذلك على ما للاتحاد السوفيتى من هيبة استمدها مما يمتلكه من قوة نووية .

من أجل ذلك أعرض على القارىء أن مما لا يستسيغه العقل أن ننتظر من الشعوب أن تعمد إلى نزع السلاح . فإن الشعوب إنما تتسلح لأن كل واحد منها يحتفظ بحقه فى أن يقرر ما يشاء وفى أن يفرض قراراته عنوة إلى القدر الذى تسمح له قوته . ثم لعمرى أنى للشعوب أن تتفق على الوسيلة إذا كانت لا تستطيع أن تتفق على الجوهر الذى يمزق صفوفها ويدفعها إلى التسلح ؟ هذه فيما يبدو أول مغالطة تطمس ما يسمى مشكلة نزع السلاح .

٣ — التسلح كفكرة نسبية

وهناك بالإضافة إلى ذلك مغالطات أخرى تنكشف إذا انتقلنا إلى الظاهرة الثانية من مظاهر مشكلة نزع السلاح ؟ ألا وهى طبيعتها النسبية ومع ذلك فهناك بطبيعة الحال ترابط قوى بين الظاهرتين ، على حد ما ذكره المستر نهرو فى كثير من الفطنة والأرابة حين قال إننا إذا قبلنا مشروع المستر خرشوف فإن الشعوب سوف تظل قادرة على الحرب بالقوس والرمح . وفى الحق أن المستر خروشوف لم يذهب فى اقتراحه إلى مدى بعيد؟إذ كان يرى فى تصوره أن تظل الشعوب تحتفظ بأسلحتها الصغيرة . وهكذا قط تختفى الصواريخ عابرة القارات ويظل الناس مع ذلك قادرين على القتال بأسلحتهم الصغيرة .

وإذا سلمنا جدلا بأن الأسلحة هى عدة القوة التى يستطيع شعب من الشعوب عن طريقها أن يرغم شعوباً أخرى على سلوك المسلك الذى يلائمه ؟ فإن هذا الشعب لا يكون مسلحاً إلى القدر الكافى إلا إذا كانت أسلحته أمضى من أسلحة أقوى الدول الأخرى التى ينازعها . وهكذا فإن مدى كفاية أسلحة الطرف الأول تتوقف على الأسلحة التى فى حوزة الطرف الثانى .

ويستتبع ذلك نتيجتان . . الأولى ، السباق على التسلح ، إذ يحاول كل شعب الحصول على هذا القدر من الكفاية فى الأسلحة ، وهى كفاية لا تعدو فى جوهرها أن تكون تفوقاً على الغير وتكون نتيجة

ذلك تسابق الشعوب على مزيد من الأسلحة وتحسيناً دائماً فى أنواعها وأنماطها . وقد رأينا جميعاً فى خلال القرن العشرين كيف أدى هذا التسابق ، تغذيه وتشد من أزره الاكتشافات العلمية المؤهلة ، إلى حشد هذه الترسانات المخيفة فى وقتنا الحاضر بالأسلحة التى من شأنها أن تنسف العالم نسفاً .

أما النتيجة الثانية فهى مزيج من المتناقضات ؟ حيث نجد نمطاً معيناً من القوة يمكن أن يخدمه نمط مقابل له من التسلح النسبى فى أى صعيد كان هذا التسلح — أعلى منه أو أدنى — بل حتى فى صعيد القوس والرمح وصعيد المسدسات الصغيرة . مثال ذلك أن نمط القوة الحالية (أيا كان فى واقع الأمر) يمكن الاحتفاظ به لو أن أسلحة جميع الشعوب المعنية انتقصت إلى النصف جميعاً . وهذه الحقيقة قد تبدو مبرراً للأمل فى « نزع السلاح » ولكنه أمل قصير الأمد ولا شك. فنحن لا نعرف على وجه التحديد ما هو نمط القوة الفعلى ، إذ أن نمط التسلح الذى يعزز هذه القوة ويحددها نمط شديد التعقيد . وحتى إذا ألقينا جانبا بالعوامل النفسية والاقتصادية والمالية والصحية والديمغرافية (علم الشعوب من حيث الإحصاء) وغير هذه وتلك من العوامل التى توسع مداه وتضفى عليه خصباً فإن عناصره العسكرية الفنية المجردة هى من التعقيد بحيث يستعصى ؟ حتى على الخبير الحصيف ، تقدير قوته النسبية . وكل ما يمكننا أن نقوله (وهو ما لا يمكن أن نقوله دائماً) هو أن دولة بالذات أقوى ، على أساس تقديرات تقريبية ، من دولة أخرى بالذات ،

وفى هذه الحالة يعترض مشكلة تخفيض الأسلحة إلى النصف سؤال لا جواب عليه ، هو . ما هذا الذى نخفضه إلى النصف ؟ إن التنافس على القوة قد يهيىء لنا جواباً ولكنه جواب ساحق ما حق . وهكذا تذوب هذه البقعة فى عقبة أخرى تليها .

فإن نمط القوة هو فى أساسه نمط متغير بحكم القوى الصاعدة ، أى القوى التى تعزز سباق التسلح . وإحدى هذه القوى هى نفسها عدم اليقين فيما عساه يكون نمط القوة هذا ، ذلك الذى يدفع كل شعب ، من أجل سلامته إلى محاولة الارتفاع بوضعه . يضاف إلى ذلك أنه ما من شعب له مصلحة حقيقية فى الإبقاء على أى نمط من أنماط القوى ثابتاً لا يتغير ، أياً كان هذا النمط ، بل كل شعب من الشعوب يريد أن يرى نمطه متغيراً بحيث يزيد نصيبه من العزة .. ويستتبع ذلك أن كل حديث عن « نزع السلاح » سوف يتطور بحكم طبيعة الأشياء لكى يزيد تسلح الشعوب المعنية ، تسلحها الحقيقى أو النسبى ، حتى على الرغم من أنه قد يخفض فى ظاهر الأمر من تسلحها الإسمى أو المطلق . ذلك أن الهدف الحقيقى لأى شعب يذهب إلى أحد مؤتمرات نزع السلاح ، إنما هو فى الواقع زيادة تسلحه الحقيقى أو النسبى على حساب منافسيه .. وهكذا يسفر « نزع السلاح » عن أنه ليس إلا صورة من الصور التى يتخذها سباق التسلح .

٤ — الرقابة

وهذه الحقائق هى النتيجة الحتمية لطبيعة التسلح باعتبارها الوسيلة

النسبية . فالقوة الدافعة التى تتحكم فى جميع شئون التسلح إنما هى الحرب بين الإرادات القومية ذات السيادة . إذ تؤدى هذه الحرب إلى الصراع على القوة ، والصراع على القوة يحتاج بدوره إلى الأسلحة ، أو بعبارة أخرى إلى التفوق فى التسلح النسبى ، بغض النظر عن القيمة الحقيقية لهذا التسلح . ومن هنا كان مبعث السرية ، والخوف المتزايد والتسابق على التسلح .

ويعلق بعض الناس كثيراً من الأهمية على إيجاد نظام من الرقابة على التسلح . ومما لا شك فيه أن أية اتفاقية لها صلة بالتسلح ولا تنص على نظام الرقابة ، هى اتفاقية لا تستحق الورق الذى تدون عليه بنودها . غير أن من المؤكد من جهة أخرى أن هذه الرقابة لن يكون لها أثر سوى زيادة الأسباب الجذرية التى تكمن خلف مشكلة التسلح ، إلا وهى تشكك كل فريق فى نوايا الفريق الآخر ، هذا إلى أن أية رقابة فعالة تقتضى أن يكون للمراقبين سلطات واسعة ، مفرطة فى حدودها ، تجاوز كل ما يمكن أن تسمح به الدساتير الديمقراطية المتحررة لحكوماتها القومية ، وأن يكون من حق هؤلاء المراقبين التغلغل فى الشئون الداخلية الدقيقة للشعوب بأكثر مما يمكن لأى رجل أو أى بلد من البلاد أن يقبله . ولنفرض الآن أن الاتفاق قد تم بالفعل على منع إنتاج المدافع الرشاشة ، فمن ذا الذى يتحقق من أن هذه المدافع لم تخفَ فى حديقة البيت الخاص بأحد الضباط ؟

وهكذا نجد أنفسنا دائماً مضطرين إلى العودة من حيث بدأنا . .

كيف يمكن أن ننتظر الاتفاق على المسائل الثانوية والمسائل الوسيلية (التسلح) إذا كنا عاجزين عن الاتفاق على المسائل الأساسية (الصراع على القوة) التى هى السبب فى تسلح الشعوب ؟ هذا هو السبب فى أن جميع المحاولات التى بذلت حتى الآن فى سبيل نزع السلاح، أو بعبارة أخرى فى سبيل تخفيض الأسلحة، قد باءت كلها بالفشل .

٥ — الطريق الوحيد

على أننا الآن قد دخلنا مرحلة جديدة من مراحل الشئون العالمية، وهذه المرحلة الجديدة قد جلبت معها عدداً من الظاهر المختلفة، أولها النمو الهائل فى القوة العسكرية والزيادة الكبيرة فى تكاليف التسلح، وثانيها ظهور قوتين عالميتين كبيرتين تهيمنان على شئون العالم وتتحكمان فيه، وثالثها انقسام العالم إلى معسكرين تسيطر عليهما عقائد سياسية متباينة، ورابعها الطبيعة الجامعة للحروب الحديثة التى لم تعد تميز فى آثارها بين عسكريين ومدنيين، وخامسها ازدياد وزن الرأى العام العالمى فى شئون العالم .

وبعض هذه الظاهر الجديدة يبدو معززا لحل مشكلة التسلح، ولا سيا ازدياد وزن الرأى العام فى الشئون العالمية، فهو أكثرها باعثاً على الأمل فى حل هذه المشكلة . فلو أن الرأى العام العالمى نما وتنور لانقلبت الجماعة العالمية بين يوم وليلة من غابة يتصارع مَنْ فيها إلى جماعة من الشعوب المتآلفة . وقد رأينا جميعاً كيف استطاعت قوة الرأى

العالمي أن تكف يدى فرنسا وانجلترا خلال حملتهما على قناة السويس. وإذا كانت قوة الرأى العام قد عجزت من جهة أخرى عن كف يد الاتحاد السوفيتى فى بودا بست فإن مجرد اضطرار المستر خروشوف إلى الادعاء بأن حكومة المجر (حكومة ناجى لا حكومة كادار) هى التى استدعت الدبابات السوفيتية هو فى حد ذاته دليل على الرأى العام قد أخذ يتصدى حتى لأعمال السوفيت ، وإن كان الاستقبال الذى استقبلت به الجمعية العامة للأمم المتحدة المستر خروشوف يعتبر من هذه الناحية نكسة إلى الوراء .

على أن تقدير متزن للموقف من جميع جوانبه كفيل بأن يحول دون الاسترسال فى تفاؤلنا . فلقد أفصح المستر خروشوف بسلوكه ؛ بل وبكلماته كذلك ، عن تعارض موقفه مع موقف المستر روبيتر ، وهو موقف كل رجل متزن فى الغرب ، وكشف عن أن الاتحاد السوفيتى إنما يسعى إلى « دفن » الرأسمالية ، أو بعبارة أخرى الديمقراطية المتحررة وهكذا نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام صراع بين إرادات فعالة .

وفى هذه الظروف يصبح نزع السلاح، بل حتى تخفيض فى الأسلحة، استحالة من الاستحالات ومن ثم كان اقتراح المستر خروشوف الأول أو بعبارة أخرى مشروعة لنزع السلاح فى مدى سنوات أربع ، الذى يشبه فى أثره عناق الدب ؟ لايعدو أن يكون قطعة مجردة من الدعاية الدهماوية ، دعاية هى من الفجاجة بحيث لا يمكن أن تخدع أحداً . أما اقتراحه الثانى فالواجب معالجته فى ضوء ماسبق لناقوله بشأن مفاوضات « نزع السلاح »

فكل بند من البنود التى اقترحها المستر خروشوف يرتكز دون شك على اعتقاده بأن « تخفيض » الأسلحة ، تخفيضاً إسمياً أو مطلقاً ، بين جميع الدول من شأنه أن يزيد التسلح الفعلى أوالنسبى للاتحاد السوفيتى . وما ينطبق على ذلك ينطبق أيضاً على تخفيضه المثير للخدمة العسكرية فى الاتحاد السوفيتى .

ولذلك فإن الطريق الوحيد لخفض التسلح ، اليوم كما كان بالأمس هو فى الإشاحة ببصرنا عن الأسلحة نفسهاوتركيزجهودنا على الأسباب التى تؤدى إلى التسلح وهذه الأسباب واضحة بينة . فالاتحاد السوفيتى يريد أن يقضى على النظام الغربى ، والنظام الغربى لا سبيل له إلى البقاء إلا إذا قذف بالشيوعية ودفع بها من عداد التاريخ ، والشيوعية بدورها لا يمكن أن تبقى دون أن تعمل على القضاء على النظام الغربى لأن هذه هى طبيعة الشيوعية . الشيوعية فى الوقت عينه تحتفظ بسلطانها على الشعوب التى تخضع لسيطرتها عن طريق أسلحتها لأنها فى حرب دائمة مع جميع الشعوب الذين دفعتهم دفعاً إلى ارتداء قميص المجانين الشيوعى . أما الوضع السليم فهو أن يسبق السلم نزع السلاح لا أن يتبعه ؟ وأن تأتى الحرية قبل السلم ، فما من سلم يمكن تصوره فى أوروبا من غير تحرير الشعوب المستذلة التى غلبتها الشيوعية على أمرها ؟ لأن هذه الشعوب طالما هى محرومة من حريتها ستظل تتطلع إلى حريتها المسلوبة . ومن ثم كان لابد من إخضاعها بقوة السلاح . ولو أن المستر خروشوف أراد نزع السلاح حقيقة لتحدث أقل ماتحدث عن الأسلحة ولتحدث أكثر مما تحدث عن السلم ، السلم الحقيقى الذى يعنى بطبيعة الحال الحرية .

٦ — حل جزئي

أفلا يوجد إذن احتمال للتخفيض من التسلح بين شعوب العالم الحرة؟ إنه طريق جدير بأن نكتشفه ونرتاده . فإذا تركنا جانباً القوات الشيوعية وما يخضع لها من الشعوب المستضعفة فإن في استطاعة الشعوب الحرة أن تسجل ما للرأي العام بينها من سلطان ولاشك متزايد فهي تستطيع أن تربط بين إرادتها الفعالة ، وأن تضع من النظم الكافية ما يكفل عدم تعكير صفو السلام نتيجة لعمل تقوم به إرادات جامحة ، وأن تدير الشئون المشتركة الحاضرة التي تهم مصالحها المشتركة بحيث تمنع الصراع قبل وقوعه . وهي تستطيع كذلك أن تقتسم أبحاثها وخططها العسكرية وأن تضع نظاماً من المشاركة في صنع الأسلحة وتنظيمها وبهذه الطريقة يمكن أن تتطور المجموعة الغربية إلى « كومنولث» من الشعوب المترابطة وأن توفر على نفسها كثيراً من المال بتخفيض تسلحها المطلق أو الإسمي في الوقت الذي تزيد فيه تسلحها الفعلي أو النسبي ؟ أو على الأقل تحتفظ به ، لكي تتحصن ضد كل عدوان شيوعي .

إن قراراً تتخذه دول الغرب وفق هذه الخطوط قد يهيىء أحسن رد على ما كان لاقتراح المستر خروشوف من قسط الرواج بين جمهرة الناس لا شك فيه . إن السلم ، مثله كمثل الصحة تماماً ، كلمة لها وقع السحر ومدعو السياسة يدركون أثر الكلمة الأولى بقدر مايدرك مدعو الطب أثر الكلمة الثانية في استهواء الناس . ولكن شعارات نزع السلاح المزيفة ، مثلها كمثل الشعوذة الطبية التي لا يمكن أن تكون

أقصر طريق إلى الصحة ، ليست بحال من الأحوال الطريق المستقيم إلى تحقيق السلم . إن حكومات الشعوب الحرة تستطيع أن تثبت للجمهرة المتعطشة إلى السلم استعدادها « لنزع السلاح » بأن تنزع سلاحها « داخل نطاقها » . وقد تكون خطوة طويلة ولكنها خطوة مأمونة لمواجهة العرض الصورى الذى تقدم به الزعيم السوفيتى أن تهب الولايات المتحدة الأمريكية فتعلن لجميع الشعوب الحرة عن استعدادها لإنشاء حلقة للدراسة والبحث مهمتها توجيه التسلح العام فى العالم الحر فى طريق يقوم على التعقل والترابط ويجرى فى خطوط إنسيابية ، وبذلك تخفض من هذا التسلح .

بل إن هذا العرض الذى ينبغى على الولايات المتحدة أن تعرضه لا يجوز أن يقف عند هذا الحد . فإن هناك عدداً أكثر مما يجب من الناس لايزالون يظنون أن كل من لا يحظى بملق المستر خروشوف فهو من دعاة الحرب الذين يؤمنون بأن الحرب النووية أمر لا مفرّ منه ، إن لم تكن أمراً مطلوباً ، وهو بطبيعة الحال هراء لا طائل تحته ، فإن خطر الشيوعية لا تمكن مواجهته بشن حرب نووية ، كما أنه ما من أحد يملك جميع قواه العقلية يمكن أن يتصور أن الزعماء الشيوعيين يستعدون لإطلاق الحرب النووية من عقالها لكى يخضعوا العالم الحر لسلطان الشيوعية. فالحقيقة الأساسية فى وقتنا الحاضر ، التى هى بمثابة حجر الزاوية ، هى مالقوة الرأى العام فى شئون العالم من أهمية متزايدة . ومن ثم كان على العالم الحر أن يظفر بالرأى العام باعتباره خير رادع يحول دون وقوع حرب نووية .

وإلى هذا الحد يستطيع العالم الحر أن يستكمل عرضه بشأن القيام بدراسة عاجلة لبحث إمكان تخفيض التسلح داخل نطاقه تخفيضاً مطلقاً ، بمشروع آخر يضفى به على مجموعة من النظم الحرة الديمقراطية الدائمة ذات الطبيعة الفدرالية ، تكفل بين أعضائها تحقيق الحرية والسلم فان مصدر المتاعب فى وقتنا الحاضر هو أن العالم الشيوعى يفهم معنى الوحدة ولعل مما لا شك فيه أن المستقبل يدخر النصر للجانب الذى يسبق الجانب إلى الجمع بين الحرية والوحدة .

القوة والسلطان

١ — صورة من الرأى العام

إن الحقيقة الأساسية التى تعتبر بمثابه حجر الزاوية فى يومنا هذا هى ازدياد الرأى العام العالمى قوة وأهمية ، وهى حقيقة لايمكن أن يرقى إليها الشك فى ذاتها . وآية ذلك أن ما كانت تنشره الصحف الأمريكية، — ولنأخذ سنة ١٩٣٠ مثلاً على ذلك — من الأنباء الخارجية (فيما عدا جريدتين فى نيويورك وجريدة فى كل من بوسطن وبالتيمور) لم يكن يصل فى مجموعه إلى عُشر ماتنشره تلك الصحف اليوم ، بل لعله كان أقل من ذلك . كما رأينا كيف فضلت فرنسا وانجلترا أن تتخليا عن حملتهما على قناة السويس حتى لاتتحديا الرأى العام ، وكيف عاد الرئيس أيزنهاور فكف يده عن فنزويلا بعد الحركة الصاخبة ، وإن كانت قصيرة ، التى بدت منه على أثر الجو المضطرم الذى استقبل به نائب الرئيس نيكسون فيها . إن مثل هذا السلوك الذى يقوم على كبح جماح النفس ما كان ليحدث أو حتى يخطر على البال فى أيام وودرو ولسون ولويد جورج . ونحن هنا إنما نخص بالذكر اثنين من الزعماء الأحرار الذين تشربوا روح الديمقراطية وعاشوا فى الماضى القريب ومع ذلك لم يترددا فى استخدام ما أسماه تيودور روزفلت بالعصى الغليظة .

ومع ذلك ، فعلى الرغم مما للرأى العام من طبيعة مكشوفة ؟ بل فى الواقع من طبيعه واضحة ، فإننا لانعرف إلا القليل عن كنهه . كيف وأين يبدأ ؟ وكيف ينمو ويتضخم ؟ وكيف يشتد من الغيظ أو يخبو من فرط الملل ؟ وكيف يموت فلا يكون له أثر . على أن هناك خطوطاً عامة تبدو من النظرة الأولى عاملاً من العوامل التى تساعد على تكوين صورةَ عن الرأى العام العالمى . فهناك الرأى العام فى القطاع الأوربى الأمريكى ، وهناك الرأى العام فى القطاع السوفيتى ، وهناك أيضاً الرأى العام فى قطاع دول عدم الانحياز . فنى القطاع الأول تسود الحرية الشاملة ، والادراك الكامل ، كما وصلت فيه نزعة النقد إلى درجة عالية من النمو . ومع ذلك فإن هذا القطاع ، بحكم أفقه الواسع وبحكم تحرره يجنح إلى الوقوع فريسة لعدد من الأخطاء يرتكبها شيوعيون رمزيون أو رفاق الطريق ، أو مجرد رجال من ذوى النيات الطيبة الذين يتوقون إلى السلام أو بلغت بهم الثقة بالناس حداً لايحذرون معه خصومهم الذين يعرفون كيف يستحوذون على عقولهم . وفى هذا القطاع من الرأى العام كذلك تلقى سُحبُ السرية التى تُغلِّف العالم الشيوعى هوى فى هوس أهله ، ولها من قوة السحر عندهم مايجعل أى زعيم سوفيتى واثقاً من أنه سوف يستقبل فى الولايات المتحدة بهتافات تفوق مايستقبل به أكبر دعاة الحرية وأصرحهم ، هذا إذا لم يكن استقباله أكثر مودة مما يلقاه صاحبنا هذا ولا غرو فهو قطاع يتعرض للمؤثرات الشيوعية التى تأتيه من

الخارج ، من العالم الشيوعى ، من الداخل ، من الحزب الشيوعى فى مختلف أقطاره .

وعلى خلاف ذلك على خط مستقيم ، نجد القطاع الذى يهيمن عليه الشيوعيون وقد حرم من كل حرية ، بينما درجة الإدراك فيه تتباين تبايناً واسعاً فى أطرافها وإن كانت فى جملتها تبلغ حداً عالياً . وهذا القطاع معزول عزلاً فعلياً – وإن لم يكن عزلاً كاملاً مائة فى المائة — عن مؤثرات العالم الحر . ومن هنا كانت الحالة الواقعية للرأى العام فى القطاع الذى تسيطر عليه الشيوعية ، حالة لاسبيل لنا أمامها إلى حد ما إلا الالتجاء إلى الحدس والتخمين . غير أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار مايجرى فى ذلك القطاع من احتجاز الأخبار عن الشعب ومن وضع أسلاك سلطت عليها التيارات الكهربائية عند الحدود كنا فى مأمن من الزلل إذا افترضنا أن كل مايذاع على الناس فى هذا القطاع من أخبار وآراء تحتكر الحكومات الشيوعية إذاعتها ، لم يكن له أثر فى إقناع الشعوب التى تئن تحت الحكم السوفيتى بما تريد هم عليه تلك الحكومات ومع ذلك فحتى إذا أسقطنا من حسابنا الأنباء والآراء المحسوسة التى يتم بهم « تكييف » الجماهير هناك نتيجة لهذه العزلة لابد أن يكون لها أثر شديد فى نفوسهم ، ومن ثم فإن مما لا يكاد يرقى إليه الشك أن هذا القطاع يعيش بعقلين ، يعيش مع الشيء وضده فى آن واحد ، وهو دائماً مستعد للتأثر ؟ وإن كان لايتأثر بالكلمات بقدر مايتأثر بالحوادث

ذات المغزى ، كالشعور بالغدر بعد الثورة فى بودابست ، وكالشعور بالابتهاج والسرور فى وارسو عند زيارة المستر نيكسون .

أما قطاع الدول غير المنحازة — وهو اسم غير مرض بالمرة لشىء يعوزه الترابط — فهو لا يبدو أن يكون ما ينطبق عليه التعبير الدولى عن الصوت « العائم » فى معركة انتخابية فى بلد من البلاد فهو صوت مفتوح لكلا الجانبين ولكنه فى حالات كثيرة (يوجسلافيا وأسبانيا هما أوضح الأمثلة على ذلك) يتعرض للتوجيه « والتكييف » ودرجة الإدراك فيه تتراوح بين المستويات العالية إلى حد ما ، كما هو الحال فى أسبانيا ويوجوسلافيا وآسيا الصغرى والهند وبين مستويات أكثر تواضعاً من ذلك كما هو الحال بين بعض شعوب إفريقيه التى ظفرت بحريتها حديثاً . والرأى العام فى هذا القطاع كثيراً ما يفتقر إلى التجارب التاريخية وإلى الإدراك السياسى الذى يمكنه من أن يستشف حقيقة الشيوعية . وفى بعض الحالات لاتزال ذكريات الغطرسة الاستعمارية عالقة فى نفوس الناس فى بعض أجزاء هذا القطاع . من أجل هذا كان من الصعب جداً أن يتأثر هذا القطاع بصفة دائمة بالعبارات التى لا تساندها الأفعال ، ولهذا فلا نفوذ العالم الحر ولا نفوذ العالم الشيوعى يمكن أن يعتبر أكثر من شىء عابر غير مستقر فى قطاع الدول غير المنحازة .

وهذه الصورة العامة فى ملامحها ، المنهجية فى خطوطها ، كما لابد أن تكون ، تدل مع ذلك على أنه مامن قاعدة من قواعد الدعاية أو البيانات

السطحية تكفى لترويض الرأى العام أو السيطرة عليه لمصلحة هذا الجانب أو ذاك فى هذا القطاع .

٢ — الرأى العام عامل من عوامل السلام

ومن بين هذه المجموعة من الأسباب التى تلقى ضوءاً على هذا العامل الذى يستجد على الشئون العالمية ، عامل الرأى العام ، يستحق اثنان منهما تعليقاً خاصاً : أحدهما التقدم المفاجىء العظيم فى إذاعة الأنباء بالراديو التى أصبحت تتخلل كل ركن من أركان العالم ، وبذلك قضت على جميع الحواجز المادية والفنية والاقتصادية التى تحتجز الأنباء والآراء داخل دائرة محدودة نسبياً ، والثانى التغيير الأساسى الذى طرأ على احتمال الإصابة من جراء الأسلحة الحديثة وبدأ باستخدام الطائرات فى الحروب حتى أصبح المدنيون فى الوقت الحاضر يتعرضون للإصابة والموت بقدر ما يتعرض لهما الجنود المحاربون بل هم قد يكونون أكثر عرضة لهما فى بعض الحالات من الجند أنفسهم .

وهذان الطرفان لا يحددان النمو الماثل فى قوة الرأى العام فيما يتصل بالحوادث التى تشكل العالم وتكيفه فحسب ، بل يحددان كذلك نمو الاتجاه ضد استخدام القوة . على أن العامل الأساسي الذى يمكن ملاحظته وهو يفعل فعله فى شئون العالم اليوم ليس ازديادة قوة الرأى العام وحده ولكنه كذلك تضاؤل أثر القوة نفسها . ولذلك يمكننا أن نقول ونحن فى مأمن من الخطأ إن قوة الرأى العام العالمى تهيىء خير رادع ضد الحرب الكلية أو العامة وتقف خير حائل ضد استخدام الأسلحة النووية .

وهذه الظاهرة هى العامل الذى له الصدارة فى الموقف كله ، لأنه يحدد العلاقة بين الحرب الساخنة والحرب الباردة . إذ يمكننا من بعض الوجوه أن نعرف هـذين النوعين من الحرب على أنهما الصراع بين الإرادات الذى يجرى بين شعوب العالم فى مجال القوة ومجال الرأى العام على التوالى . فالحرب الساخنة تنهى الصراع بالقوة الغاشمة ، بينما الحرب الباردة تهدف إلى قهر الإرادات الطيبة فى العالم . ولما كان أحد من الناس لا يستطيع أن يفعل مثل ذلك عن طريق التهديد بإفنـاء العالم بالأسلحة النووية ، كان لابد من إثارة حرب باردة عن طريق اتهـام الخصوم بأنهم يريدون شن حرب ساخنة . ومن هنا كان استخدام السوفيت « لنزع السلاح » و « السلام » كقذائف عابرة للقارات فى حربهم الباردة .

٣ — قذائف الحرب الباردة — القذائف الشيوعية

على أن ذلك لا يستتبع أن يكون رد العالم الحر على ذلك بنفس السلاح . بل الواقع أنه قد يكون أسلم لنا فى الحرب الباردة أن نتجنب أى سلاح وكل سلاح استعمله خصمنا ولوثه باستعماله . فللعدو أسلحة ثلاثة يلجأ دائماً إلى استخدامها : الإمبريالية ، ونزع السلاح ، والسلم . وقد أتيح لى فيما سبق أن أكشف عن مسألة نزع السلاح وأن أوضح أنها لا تعدو أن تـكون ذريعة يستخدمها الشيوعيون فى خضم الشئون العالمية . أما الإمبريالية فمسألة يمكن أن تـكون محل اتهام للغرب من أى شعب فى العالم إلا الشعوب الشيوعية . فليس فى سجلات التاريخ كله

امبراطورية واحدة يمكن أن تقارن فى حجمها بالإمبراطورية الروسية فى آسيا ، أو بالإمبراطورية الروسية فى أوروبا فى قسوتها وأنانيتها . ولذلك فحين يتهم العالم الشيوعى الشعوب الحرة الكبرى بالإمبريالية والاستعمار فهو إنما يكذب ويكذب .

وكذلك السلم فهو كذبة كبرى تخرج من أفواه السوفيت. فالسلم لا يمكن أن يكون له وجود إلا بين شعوب هى نفسها فى سلم مع نفسها وهو ما لا ينطبق على أى شعب فيما وراء الستار الحديدى ، بل ولا على روسيا نفسها . وهنا قد يقول بعض من زاروا تلك البلاد؟ سواء من أصحاب الشخصيات البارزة أو غيرهم، إنهم ذهبوا إلى هناك فلم يلحظوا بادرة واحدة من بوادر التوتر بين الحكومة والشعب ، إلى آخر هذه القصة . ولكن هناك على الرغم من ذلك ثلاث حقائق ثابتة كلها تدل دلالة قاطعة على أن حرباً باردة تجرى داخل الاتحاد السوفيتى مهما قال المجاملون والسطحيون . وحسبنا ما يقوم به الاتحاد السوفيتى من تشويش[1] على موجات الإذاعات الخارجية وما يضربه حول البلاد من أسلاك سلطت عليها التيارات الكهربائية . ومن ثم فنحن لا نستطيع أن نعقد سلماً مع روسيا ، لأن روسيا نفسها فى حرب مع الحزب الشيوعى الذى فرض سلطانه عليها . فإذا عقدنا سلماً مع الحزب الشيوعى كنا فى الواقع نعلن حرباً على الشعب الروسى نفسه ، والعكس بالعكس . إنها والحق يقال معضلة مالها من مخرج .

---

(١) يبدو أن هذه الحالة فى طريق التغيير . وقد يكون سبب ذلك أن الإذاعات لم تعد تستحق التشويش . على أنه تغيير لا أثر له مع ذلك حتى الآن (المؤلف) .

يضاف إلى ذلك أن الاتحاد السوفيتى هو الذى أثار الحرب الباردة وهو الذى يضرم نارها . لقد عرضت الولايات المتحدة على الاتحاد السوفيتى سلماً « لاحرارة فيه » على أثر انتهاء الحرب الساخنة ضد ألمانيا هذا السلم الذى عرضته الولايات المتحدة هوما تعارف الناس على تسميته بمشروع مارشال . ولكن الاتحاد السوفيتى رفض هذا العرض النبيل الذى يدل على حكمة سياسية بالغة . وهكذا استمرت الحرب الباردة ، وهى تستمر لأن الاتحاد السوفيتى مصمم على أن يدفن الرأسمالية . ولما كانت الحرب الباردة إن هى إلا نوع من الحرب فإن الاتحاد السوفيتى لا يستطيع أن يستخدم كلمة « السلم » إلا على أنها أداة للحرب ولذلك كانت دعوته إلى السلم كذبة كبرى .

ولو أن هذه الحقائق كانت أوضح فى عقول الناس لنظروا إلى زيارة المستر خروشوف للولايات المتحدة من زاوية أفضل ، وإذن لأدركوا حقيقة كنهها ، لا على أنها من أعمال السلم بل على أنها من أعمال الحرب

٤ — مسئوليات الحرب الساخنة

مسئوليات الحرب الساخنة تختلف عن الحرب الباردة بطبيعة الحال . فالحرب الباردة هى الحرب الوحيدة الممكنة بين الدول الكبرى . من أجل هذا كان اختيار الأسلحة على أكبر جانب من الأهمية . على أنه قد يكون من الخير ، قبل تحديد نوع هذه الأسلحة ، أن نقول كلمة عن العلاقة بين الحرب الساخنة والحرب الباردة ولنضعها فى عبارة قد تبدو

نقيضية . فإن أهمية التسلح السليم إنما هى فى القضاء على أهمية الأسلحة بالكلية . ثم أليس هذا فى الواقع هو مضمون الحكمة القديمة . . إذا أردت السلم فكن مستعداً للحرب . وهكذا فإنه فى حالتنا التى نحن بصددها علينا أن نستعد للحرب الساخنة لكى نتجنب الحرب الباردة . فإذا فعلنا ذلك أنسابت الحرب الساخنة إلى مركب الحرب الباردة فى صورة الخوف من الحرب . لذلك كان من الضرورى أن ندرك أن الحرب الباردة ، وإن كانت حقيقة ، فإن الحرب الساخنة لا تدخل إلى حيز الحقيقة إلا على أنها الخوف من احتمال وقوع الحرب .

إن أمام الغرب ثلاثة طرق ممكنة بإزاء هذا الموقف ، أولها أن يستغل إلى أقصى حد خوف الطرف الآخر من الحرب الساخنة ، بعبارة أخرى أن يلقى على كاهل الطرف الآخر مسئولية ضبط النفس ، فتتوزع المسئولية بذلك بين الطرفين . وثانيهما أن يتقبل الغرب كل الخوف وكل المسئولية التى كان يجب أن تتوزع بين الطرفين . وثالثها أن يتقبل الغرب نصيبه الكامل من الخوف ، ومن ضبط النفس ملقياً على أكتاف خصمه بنصيبه من كل ذلك الذى يجب أن يتحمله . وإنه لمن الحقائق المحزنة أن يكون العالم الشيوعى ممعناً فى اختيار الطريق الأول بينما العالم الحر قد دأب على اختيار الطريق الثانى .

فلقد تناول الاتحاد السوفيتى الموقف وعالجه بقسط كبير من الكفاية والمهارة . فقد استطاع عن طريق شن حملة قوية من أجل السلم أن « يكيف » الرأى العام فى العالم الحر ، وقاد هذه الحملة بنجاح إلى حد أنه ما من حكومة

من حكومات الشعوب الحرة تستطيع أن تهش على أوزة السوفيت الحمراء خوفاً من أن تتهمها صحافة بلدها بأنها تعمل من أجل الحرب . وهكذا أصبح من حق المستر خروشوف أن يسمح لنفسه بتقديم أى عدد من الإنذارات يراه ؟ وأصبح فى استطاعة المسيو شوان لاى أن يلقى بما يشاء من القنابل وأن يدفع ما يشاء من حملات الغزو إلى الميدان . أما حين يكون الأمر متعلقاً بالمستر دالاس فهو لا يكفى إلا نباحاً شديداً كواحد من دعاة الحرب . وأما حين يكون الأمر متعلقاً بالدكتور أديناور فهو رجعى عنيد لا لشيء سوى أنه يريد أن يركز أعين الناس على ما يراه هو هيكلاً مخيفاً وما يريد خصومه أن يروه شيئاً وردياً باسماً .

بل كثيراً ما يتناسى الزعماء الشيوعيون تصريحاتهم عن السلم فيجازفون ببعض ألعاب المقامرة فى كثير من أجزاء أوربا وآسيا ويلعبون بعواطف الناس وخوفهم من الحرب الباردة ذلك الخوف الذى نجحوا فى أن يلقوه فى قلوب الشعوب الحرة عن طريق حملات السلم التى يشنونها . وإن أزمة حصار برلين وضرب كيموى بالقنابل وأزمة الشرق الأوسط ومشكلة لاوس وأزمة برلين الحديثة وغير ذلك من المواقف والأزمات التى يجوز أن أكون قد أغفلت ذكرها كلها تدل على أن رؤساء العالم الشيوعى يعرفون تماماً متى يتوقفون عن ألعاب المقامرة التى طالما يحلو لهم أن يمارسوها . ومع ذلك فقد خرجوا من ألعابهم هذه بربح كبير بل لقد خرجوا منها أحياناً وهم قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أحلامهم المنشودة

إن هناك فى الغرب اليوم مثلاً أصواتاً هى من المسلم به ليست أصواتاً

رسمية ولكنها مع ذلك أصوات لها احترامها وقدرها تنادى بضرورة الوصول إلى اتفاق ما بشأن برلين حتى ولو كان هذا الاتفاق يتضمن الاعتراف بالمنطقة الشرقية من ألمانيا وحتى لو كان الأمر يقتضى إرغام الدكتور أديناور على قبول مثل هذا الاعتراف . هذا مع العلم بأن الاعتراف بالمنطقة الشرقية من ألمانيا يحمل فى طياته اعترافاً بشرعية الإمبراطورية السوفيتية فى أوربا الشرقية برمتها ، وفى ذلك ما فيه من ضربة أدبية أليمة للعالم الحر تجعل هزيمة الغرب فى الحرب الباردة مسألة سنوات معدودات.

إن السبب فى أزمة برلين هو أن المستر خروشوف قد أعلن أنه لن يتقيد بعد الآن بالتزامات اتفاقية عقدها الاتحاد السوفيتى بمحض إرادته . ودول العالم الحر الكبرى كما عرضنا من قبل (القسم الخامس) يقبولها المفاوضة على هذا الأساس المجدب ، اعترفت أمام الرأى العام فى الواقع بأن الموقف فى برلين موقف « شاذ » وأنها مستعدة للتفاوض فى عقد اتفاقية أخرى مع خصم لم يكد ينتهى من تمزيق اتفاقيته القديمة . وقد أثار المستر خروشوف هذا الموضوع كما كشفت الحوادث فيما بعد ، لكى ينتزع من دول العالم الحر اعترافاً بحكومة بانكو ، ولذلك فإن هذه الأزمة العالمية الثانية شأنها شأن الأزمة الأولى ليست إلا واحدة من معارك الحرب الباردة وهى معركة قد تكسب وقد تخسر ولكنها لن تكسب أو تخسر فى برلين أو فى بانكو بل فى ميدان الرأى العام فهى أساساً معركة كسب الرأى العام فى أوربا الشرقية الذى يشخص ببصره إلى العالم الحر ويراد الآن تحويله فى نوبة من نوبات الاشمئزاز فى اتجاه

موسكو ثم يكون النصر النهائى بعد ذلك سهلاً ميسراً ، بعد أن يكسب القطاع الشيوعى الرأى العام فى قطاع الدول غيرالمنحازة . والحق أنه لمن خبل الرأى أن يبحث أحد من الناس هذه الأزمة على أساس شعارات خاوية مثل « التخفيف من حدة التوتر » فالمعركة الآن معركة التغلب على هذه القوة الجديدة التى ظهرت فوق الأفق ويتنازعها العالم الشيوعى مع العالم الحر — قوة الرأى العام .

فكيف نستطيع أن نكسب هذه المعركة وننهى بذلك الحرب الباردة نفسها ؟ .

٥ — يجب علينا أن نكسب الرأى العام

من الضرورى أولاً ، وقبل كل شىء ، استعادة ما كان للعالم الحر ولا سيما الولايات المتحدة ، من سلطان . والواقع أنه ما من كلمة شاء سوء حظها أن يساء فهمها بقدر ماأسىء فهم كلمة «سلطة» و «سلطان» فأصبحنا نقرأ ونسمع مثلاً عن « النظم المستندة إلى السلطان » ، فى حين أن المقصود هى « النظم المستندة إلى القوة » فالقوة هى وسيلة مادية ، بل أكثر الوسائل مادية لإكراه الناس على الطاعة . أما « السلطان » فهو هبة تمكّن صاحبها من الظفر برضا الناس وموافقتهم التلقائية . والقوة تعتمد على الخوف بينما السلطان يعتمد على الثقة . والواضح فى شئون الناس العامة أنه كلما زادت القوة تضاءل السلطان من ذلك مثلاً أن باباوات روما فقدوا قوتهم الزمنية ولكن سلطانهم نما وازداد . وكذلك الملوك حين أصبحوا حكاماً دستوريين كسبوا من

السلطان أكثر مما خسروا من القوة . فالملكة اليزابث الثانية لا تملك في يديها قوة ماولكنها مع ذلك تحظى بقسط هائل من السلطان ، بينا فرانكو يملك كل مافي أسبانيا من قوة ولكنه لا يحظى بأي قسط من السلطان .

ولقد بلغت الولايات المتحدة ، في فترة مشروع مارشال ، حداً من السلطان لم يسبق لشعب آخر في التاريخ أن حظي بمثله . ومع ذلك فقد بددت الولايات المتحدة هذه الهيبة التي كانت لها تبديدا يثير الأسى في النفوس . فإذا ترجمنا الآن السلطان والقوة إلى مترادفيهما في شئون العالم الحاضرة ، كان السلطان يمثل الرأي العام بينما القوة تمثل التسلح فإذا قدر للعالم الحر أن يكسب الحرب الباردة فإن على الولايات المتحدة أن تستعيد ما كان لها من سلطان في فترة مشروع مارشال .

إن السلطان معناه الأصالة ، ومن ثم فإنه لا يمكن لأحد من الناس كسبه باقتفاء أساليب الغير أو محاكاتهم في آرائهم ، ومن كان صاحب سلطان في أحد مناحي الحياة أصبح حجة فيه فلا يحتاج في ذلك إلى من يدله على ما يجب أن يفكر فيه ، أو ما يجب أن يقوله أو يفعله فيما هو حجة فيه . وإذن فكيف يكون للعالم الحر ، والأمر كذلك ، سلطان على شئون العالم طالما هو ينتظر حتى يلعب المستر خرشوف على قيثارته قبل أن يرقص على نغماته وإن على العالم الحر أن يتكلم بصوت نفسه وأن يعيش على جوهر نفسه .

والسلطان يعتمد على الثقة ، والثقة تؤدي إلى التماسك والترابط .

وإن أكثر مايحتاج إليه العالم الحر الآن إنما هو التماسك والترابط . واقناع العالم أجمع بأن مايقوله زعماء العالم الحر هو مايعنونه على وجه التحديد . فالكلمة التى تخرج من أفواه العالم الحر يجب أن تكون تبراً لا يرقى الشك إلى قيمته .

لذلك كان على الشعوب التى تتزعم العالم الحر ، لكى تكسب الحرب الباردة ، أن تخوض الحرب الباردة بأسلوب إيجابى ، وبطريقة نشطة تعتمد على الأصالة والمبادرة ، كما يجب أن تكون قذائفهم الفكرية فى هذه الحرب قذائف خالصة صادقة . إن على تلك الشعوب ألا تغفل أبداً عن ذكر الحكمة التى جاءت على لسان لنكولن . إنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت .

٦ — قذائف الحرب الباردة — قذائف حرة

إن القذائف الرئيسية الثلاث التى يستخدمها الشيوعيون فى حربهم الباردة هى « الإمبريالية » ، و « نزع السلاح » و « السلم » وقد كان علينا أن نضع كل كلمة من هذه الكلمات بين شولتين لأنه ما من واحدة منها تؤدى معناها الحقيقى . ولهذا كان علينا نحن كذلك أن تكون أفعالنا كلها قائمة على الصدق وحسن النية حتى لا يكون لأحد سبيل لأن يضع الكلمات التى تمثل قذائفنا بين شولتين كذلك . وهذه القذائف التى يجب أن تكون فى متناولنا هى . . الإمبريالية الشيوعية ، ونزع السلاح المعنوى ، والحرية .

أما عن الإمبريالية الشيوعية فإن الحقائق المتصلة بها فياضة ساحقة

بل لعل قدرة العالم الشيوعى الشيطانية لم تبلغ من النجاح فى أى ميدان آخر ما بلغته فى هذا الميدان ، فقد استطاع بما أطلقه من صيحات متوافقة مرنمة فى موضوع السلم أن يغرق صيحات الاحتجاج التى تنطلق من العالم الحر ضد كل عمل من أعمال العدوان التى يرتكبها الشيوعيون . والعدوان الذى وقع على التبت أخيراً إن هو إلا واحد من سلسلة طويلة من العدوان بدأت أول ما بدأت حين ابتلع الشيوعيون فى جور واضح شعوب البلطيق الثلاثة . ومع ذلك فلم تجرؤ الشعوب التى تتصدر العالم الحر على الاحتجاج على ما وقع من عدوان على التبت خشية أن يفسدوا أثر زيارة خروشوف للولايات المتحدة ، على الرغم من أن تلك الزيارة لم تكن عملا من أعمال السلم بل عملاً من أعمال الحرب .

إن الواجب علينا ألا ندع موضوع الإمبريالية الشيوعية ينحدر إلى غياهب النسيان ، أو نسكت عنه . فهو سلاح لاغنى لنا عنه فى كسب الحرب الباردة . ومن واجبنا أن نستغل جميع الوسائل ، بما فى ذلك الأفلام ، لكى نضع دائماً أمام أعين العالم الحقائق العارية — والبليغة مع ذلك — عن الحريات المفقودة والثروات المسلوبة التى تتبع خطى الشيوعية أينما سارت .

بل ما كان يجوز للعالم الحر أن يقبل العرض المتسم بالتعصب الذى تقدم به الاتحاد السوفيتى ، يعرض فيه نزع السلاح نزعاً شاملاً عاجلا ، أو ما التمسه من هدف مقصود تحت ستار نزع السلاح سواء فى كميته أو نوعه أو مداه . نعم ما كان يجوز للعالم الحر أن يقبل ذلك على نحو

ما قبله . إن مثل هذه العروض التى يتقدم بها الاتحاد السوفيتى لنزع السلاح كان يتعين على العالم الحر مواجهتها بإجراءين جوهريين صادقين : الأول سلبي والثانى إيجابى . الأول يهدف إلى بيان استحالة أى نزع للأسلحة إلا إذا تطورت الهيئات الدولية تطوراً فعالاً ، ولاسيما ما كان منها ذا صبغة قضائية . والاتحاد السوفيتى كما نعلم هو أكبر شعوب العالم تأخرا فى هذه الناحية هو ودوله التوابع بطبيعة الحال ، فليس فى العالم كله شعب يبز الاتحاد السوفيتى (وتوابعه) فى حرصه البالى العتيق على التمسك بسيادته المطلقة التى لا تعرف قيداً ولا حداً ، أو يفوقه فى تعنته على محكمة العدل الدولية . ومع ذلك فإن هذا الجانب من المسألة على ماله من أهمية قصوى فى كل حديث عن نزع السلاح ، قلما يرد له ذكر أو يتذكره أحد . وإنه ولاشك لمن خطل الرأى أن يطالب أحد بنزع السلاح ثم هو فى الوقت نفسه يأبى أن يخضع لمحكمة العدل الدولية .

ويلى هذا الأجراء الضرورى ، وإن كان إجراء سلبياً ، اجراء إيجابى يتعين على العالم الحر القيام به وهو يعالج مسألة نزع السلاح ، فيطالب فى منطق حاسم ، منطق المتمكن من قضيته ، بأن نزع السلاح الأدبى يجب أن يسبق كل محاولة لنزع السلاح المادى . إذ لما كان السلاح هو عدة كل عداء كان علينا أولا أن نتخلص من العداء لكى نتخلص بالتالى من التسلح . ولكن إياك « والتخفيف من حدة التوتر » لو سمحت . وليكن هدفنا دائماً البناء على أساس متين .

ونزع السلاح الخلق يعنى مبارزة بين معرفتين متبادلتين ،

بين تبادل الآراء والتجارب الحرة والتشديد هنا هو على كلمة « الحرة » . ومن ثم فان كل مسعى إلى المفاوضة — سواء أكانت على مستوى القمة أم على مستوى مادون ذلك حتى ولو كان فى قاع الوادى نفسه — يجب أن يصحبه السعى إلى منع التشويش على الإذاعات وإلى فتح الحدود . فإذا أضيفت إلى ذلك بعض العروض الملائمة من وقت إلى آخر كانت الفائدة أبعد أثراً ، كأن تعرض الولايات المتحدة مثلاً ألف منحة دراسية لمثل هذا العدد من طلاب الجامعات السوفيتية ليتابعوا دراساتهم العليا فيها ، فإن تكاليف مثل هذا العرض لن تزيد على ما يتكلفه صنع بندقية ذرية واحدة ، فى الوقت نفسه قد يكون صداه أكثر من صداها .

وأخيراً يجب على العالم الحر — فى مقابل سلاح السلم — أن يستخدم سلاح الحرية . فإذا كان السلام رغبة عامة ، فكذلك الحرية رغبة عامة ، بل هى رغبة ملحة فى قلوب جميع الناس . فليس ثمة رجل يتنازل عن حريته طائعاً مختاراً ، دون قسر أو إرغام ، من أجل سلامه . وفى الوقت نفسه ما من رجل إلا وهو مستعد للتضحية بسلامه من أجل حريته . وهكذا سوف يستطيع العالم الحر أن يكسب الرأى العام فى العالم كله يوم يصبح نصير الحرية والداعية إليها فى صراحة لا لبس فيها .

ومع ذلك فلن يجدى ذلك العالم الحر فتيلاً لو أن مناصرته للحرية

ظلت تقتصر على عبارات لفظية تتماوج كالراية وسط دنيا مليئة بالشعارات بل عليه أن يعبر عن مناصرته لها بالأعمال وبالنظم أو بالهيئات التى يبتكرها ، وأن يعرض أمام العالم صورة لاتحاد عالمى يجمع بين الوحدة والحرية ويتفوق على الاتحاد السوفيتى الشامل الذى تعرضه موسكو ، وأن يكفل لجميع الشعوب على السواء تعاوناً فنياً ومالياً لامطمع من ورائه إلا رفع مستوى العيش بين تلك الشعوب ودعم حرياتها القومية . بل قد يكون عليه أن يفكر فى احتمال إنشاء حزب عالمى يناصر الحرية ويعمل من أجلها على نحو ما يفعل الحزب الشيوعى من أجل نشر الاستعباد فى كل مكان .

ومع ذلك فإن هذا البرنامج لا بد أن يظل عديم الجدوى لو أن أصالته ظلت تفتقر إلى التماسك والترابط . إن الحق لابد غالب على أمره إن عاجلاً أو آجلاً . ولهذا فمن العبث أن يقف العالم الحر ليناصر الحرية القومية بينما هو يصادق كل دكتاتور فى الأرض يعرض عليه قاعدة بحرية أو جوية مهما كانت يد هذا الدكتاتور مخضبة بآثار الجرائم التى يرتكبها . إن أهمية القواعد البحرية والجوية هى فيما قد تؤدى إليه من احتمال القضاء على الحرب الساخنة ، ولكنها فى الوقت عينه تترك شبح الخوف يطفو فوق الصورة . بل أهم من القواعد البحرية والجوية أن يكسب العالم الحر الحرب الباردة . ولهذا لا ينبغى أن يسمح لأى اعتبار كائناً ما كان ، حتى ولو كان حاجة عسكرية ملحة ، بأن يلوث علم الحرية الذى يرفعه الغرب .

أ كثر من ذلك أن اليوم الذى تظفر فيه الشعوب الحرة بثقة الرأى العام فى العالم وتفوز باحترامه هو اليوم الذى تكف فيه يد الإمبراطورية الشيوعية عن شن حرب ساخنة . ذلك أن الحروب الحديثة لا يمكن خوضها إلا برضى الملايين من البشرية ، ومن هنا كان كسب الرأى العام العالمى بالنسبة للعالم الحر الهدف الحقيقى من الحرب الباردة ، وهو فى الوقت عينه أقوى مانع يحول دون وقوع الحرب الساخنة .

خاتمة

فى الوقت الذى أخذ فيه الأقطاب الأربعة يقتربون من سيناء ليعلنوا منها وصاياهم العشر عن السلام ، كان الضباب المنبعث من أنهار الخطل وسوء الإدراك ، والسحاب المنطلق من الدعايات يلقيان على المنظر الذى خلفوه وراءهم وتحتهم غشاوة تطمس معالمه . ومع ذلك فعلى الرغم من هذه الغشاوة العالقة فإن حقائق الموقف ظلت باقية على ماهى عليه ، لأنها حقائق تتغلغل إلى أعماق الطبيعة البشرية .

وأهم هذه الحقائق ، النزعة القوية إلى الحرية التى تضىء قلوب البشر فليس من بين جميع الدوافع التى تدفع إلى التفاؤل ، وتبعث الأمل فى النفوس بانهيار الشيوعية يوماً ما آجلا أو عاجلا ماهو أقوى من أن الشيوعية قد اختارت أن تدفع التاريخ فى مجرى يتعارض مع مجرى الطبيعة البشرية. والطبيعة البشرية ولا شك لابد منتصرة ، فما من شىء فى الوجود يمكن أن يتغلب عليها بصفة دائمة ، ولا سيما على جوهرها — ألا وهو الحرية .

وقد وضح ذلك خلال ثورة المجر التى وقعت فى اكتوبر عام ١٩٥٦ . إذ من هم الذين حاربوا فى بودابست وماتوا فى شوارعها رجال فى الستين من عمرهم ذاقوا طعم الحرية يوماً ما ، ورجال فى الأربعين من عمرهم رأوا الحرية وهى تختنق على يد هتلر ، ثم أغلبية تتألف من شباب فى العشرين من عمره لم تسبق له تجربة حياة الحرية إطلاقاً ، سعيدة أو غير سعيدة

كانت هذه الحرية . شباب فى العشرين لم تكن الحرية بالنسبة لهم إلا وازعاً داخلياً يدفعهم إلى طلبها وفى هذا التعارض الأساسى بين الشيوعية وبين روح الإنسان يكمن جوهر الصراع الحالى .

ولذلك ففى كل مرة نرضى فيها باسم «السلام» أو باسم «التخفيف من حدة التوتر» أو باسم هذا أو ذاك من أمثال هذه الشعارات الجوفاء، بأن نفاوض أولئك الذين يحاربون الحرية ، فإننا لا نكون قد أخطأنا الخطأ فحسب بل نكون بلهاء أغبياء إلى أبعد حد . ذلك أننا بمثل هذا الذى نفعله إنما نفقد سلطاننا الأدبى دون أن نكسب شيئاً فى مقابله ، حتى ولا هذا « السلام » أو هذا «التخفيف من حدة التوتر» أو أمثالهما مما نسعى إلى تحقيقه . بل لعل الأمر على النقيض من ذلك . فإننا بذلك إنما نزيد من حدة التوتر ونساعد على استمرار الحرب التى لا بد أن تظل متأججة فيما وراء الستار الحديدى بين الشيوعية والحرية . بعبارة أخرى، إننا نرتكب بذلك خيانة كبرى ضد صفوفنا الأمامية ، ضد شعوب أوروبا الشرقية ، فى مقابل « سلام » ليس من السلام فى شىء .

نعم ، فإننا حين نطلق هذه العبارات ، وحين نتوق إلى كسب الانتخابات التى تجرى فى بلادنا فنسعى إلى إهداء شعوبنا الاتفاقية المنشودة التى ظللنا نشوقهم إلى عقدها مع المستر خروشوف ، ذلك الثرى ذى البسمة المرسومة على شفتيه ، ذلك الرأسمالى الذى فاق الرأسماليين فى شئون دولة فاقت الدول ، ألا وهى الدولة التى تضم نصف أوروبا ، إننا حين نفعل ذلك فإنما نقضى على كل ثقة فى نفوس أولئك الذين

يقفون منا فوق خط الدفاع الأول ، وندفعهم إلى أن يلقوا بأنفسهم فى أحضان من يضطهدونهم ويظلمونهم ، وبذلك نريح الاتحاد السوفييتى من القلق الذى يساوره ، وإليه يرجع معظم الفضل فى الحيلولة دون قيام حرب ساخنة . إن الاتحاد السوفييتى يخشى إذا هو خطا خطوة واحدة ضدنا ، أن يقع انفجار بين الشعوب المتعطشة إلى الحرية ضده . فإذا أتيح له الآن أن يتخلص من قلقه ومتاعبه هذه فى أوروبا فقد يتجه إلى تعبئة طابوره الخامس فى فرنسا وإيطاليا ، وإلى تطويق ألمانيا بنطاق من الدول الحمراء ، وهكذا يحقق لنفسه السيطرة على أوروبا .

هذا ولا شك سوف يكون موقفاً إذا ظل زعماؤنا يجرون وراء « السلام » لأنهم يفتقدون الإيمان بالحرية فى حين أنهم لو استطاعوا أن يستعيدوا إيمانهم بالحرية فإن قبضة السادة السوفييت على أوروبا ، بل حتى على روسيا نفسها ، لابد أن تتداعى ، ولا أخال زعماءنا إلا مدركين ذلك أياً كانت مظاهر الأشياء . فهم إذا آمنوا بقوة الوازع إلى الحرية الكامن فى قلب كل رجل فسوف يكون فى استطاعتهم أن يَثْبتُوا ، دون تراجع أمام كل ملق أو تهديد ، إلى أن تهب شعوب أوروبا الشرقية ، بما فيها الشعب الروسى نفسه ، فتطالب بحريتها . وقد لا تتخذ صيحة الحرية صورة مسرحية بالضرورة ، فليس ثمة ما يحتم أن تكون ثورة كثورة بوادبست . بل هى قد تبدو مجرد تعجيل بالخطوات التى تسير بها العملية التى دفعت بالمستر خروشوف إلى سلوك مسلك أقل وحشية من المسلك الذى سلكه ستالين من قبل . وحين يدفع الثراء عدداً أكبر

فأكبر من الروس إلى الرغبة فى إنفاق أموالهم فى فيينا وباريس فإن النظام الشيوعى سوف يبدأ فى التصدع .

فإذا جاء الغرب الآن ، فأهدى إلى الطغاة الشيوعيين قبل الأوان هدية من النفوذ ومن الرضوخ لإراداتهم ، ومن القوة ، فهو إنما بذلك يوقف تيار هذا التصدع ، بل هو بالفعل قد أخذ يوقف هذا التيار . ومع ذلك فإذا عمد الغرب الآن إلى رفض كل تسليم أو رضوخ لرغباتهم فهو سوف يعجل بسقوطهم . أراك تقول إنه عمل ينطوى على خطر ، ولـكنى أذكر لك بأنه ليس بالخطورة التى تظنها ، فالأسلحة الذرية تنفى أثر بعضها البعض . أما عن الفرق العسكرية ، نعم فإن الدول « الشيوعية » تملك عدداً هائلا من هذه الفرق ، ولـكن ، هل هى تملك هذه الفرق مثلاً ، نذكر أن العنصر الوحيد من غير المجريين الذين حاربوا من أجل حرية المجر فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ كان عنصر الروس الفارين . لقد اختاروا الحرية فهل نختار نحن « السلام » ؟

خاتمة : ١٩٦٠

استنتاجاتنا تثبت صحتها .

والآن وفيلم الأحداث العالمية يجرى أمام أعيننا نرى الآراء والمسالك والاستنتاجات التى أشرنا إليها فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب تزداد تأكيداً يوماً بعد يوم بما يصدر عن نجوم العالم السياسين من أعمال وتصريحات . وكان المستر خرشوف بصفة خاصة أعلامهم فى ذلك كعباً ، فلقد شاء جوده أن يمدنا بكثير من الشواهد المسلية على صحة تشخيصنا للموقف ، بل لقد أصبح من نافل القول الآن أن نعترف له بقدرته على التمثيل المسرحى . وإنه لمن سوء الفطنة فى وقت لم يعد فيه العالم يستمتع بمرحه القديم أن نترك مثل هذه الفرصة تمر دون أن يفيد منها العالم فى الترويح عن نفسه ، فهى على أية حال تسلية لا ضرر منها ولكن بشرط واحد ، هو ألا ننسى قدرة المستر خرشوف على الانتقال فى تمثيله من الكوميديا إلى التراجيديا فإن من بين ما أثبتته حوادث ١٩٦٠ قدرة الاتحاد السوفييتى على أن يلعب أى دور يختاره لنفسه على مسرح الشئون العالمية ، بينما الغرب قد ظل عاجزاً عن أن يتبين إذا كان هو البطل أم الخادم الحسناء أم الشرير .

ومع ذلك فمن خلف الألاعيب التى يؤديها قيصر روسيا الأحمر

يمكننا أن نتبين ما يخفيه من سياسة حازمة لا تلين ولا تتغير ، سياسة تهدف إلى كسب الحرب الباردة بكل وسيلة فى مكنته بما فى ذلك التهديد بشن حرب ساخنة لا يعتزم فى قرارة نفسه أن يشنها إطلاقاً وإن كان من المحتمل أن يجازف بها هنا وهناك — يجازف بها فى أشد حدود الحرص .

القذائف الفكرية القديمة مرة أخرى

وتحقيقاً لهذه السياسة استطاع الاتحاد السوفييتى وزعيمه أن يستخدم بنجاح كل قذيفة من قذائفه الفكرية، فشهر بالإمبريالية الأمريكية فى أطراف الأرض كلها بمناسبة تحرير فيدل كاسترو لكوبا . مسكينة كوبا ! فهى لا تكاد تتخلص من دكتاتور يعتمد على مؤازرة أمريكا الرصينة الهادئة حتى تقع فريسة بين ذراعى بطل يبيعها المستر خرشوف من أجل قصعة من الثريد الأحمر .. على أن ورطة كوبا ليست إلا جزءاً من نمط عالمى أوسع ، فلقد جاءت مغامراتها فأمدت الاتحاد السوفييتى بفرصة رائعة لكى يشهر بالإمبريالية الأمريكية . أما سخرية الأوضاع الحقيقية فهى أن هذه المغامرة كان يجب أن تمد الغرب بفرصة أكثر روعه للتشهير بالإمبريالية السوفيتية . . ولكن كيف يتأتى أن نفعل ذلك ونحن حريصون كل الحرص ألا نفسد الأمر على مؤتمر القمة القادم ؟

« والتعايش السلمى » قذيفة فكرية أخرى استغلها الاتحاد السوفييتى بعد أن صقلها من الصدأ الذى علق بها فى ترسانة الاتحاد السوفييتى

على اثر الدماء التى أهرقت فى المجر . إن المستر خروشف قد يكون من الناحية الجثمانية لحيا بدينا ، ولكنه من الناحية العقلية مرن سريع الحركة ، ومن ثم فهو يستطيع أن يوفق بين التمايش السلمى وبين أشد أنواع القدح وأكثرها تقلبا فى أولئك الذين يريد أن يتمايش معهم ، فهو لا يتورع عن أن يعرض على عالم منذهل جزرة التمايش السلمى وعصا الحرب النووية الضخمة ، يعرضهما فى وقت واحد أو كبديلين :

ولما كان المستر خروشوف سيداً غير منازع فى شئون الحرب الباردة فهو يحرص دائماً على أن يرتل أناشيد تهديداته بالحرب الساخنة جنباً إلى جنب مع ترنيمة (نزع السلاح) الخافتة وإذن فما على العالم كله أن يعرف أن الاتحاد السوفيتى على استعداد دائماً لنزع سلاحه نزعاً شاملا وفورياً (اللهم إلا من بعض مسدسات ستعمل فى خدمة الشرطة ونحن نعرف جميعا العجائب التى تستطيع شرطة الاتحاد السوفيتى أن تؤديها بالمسدسات) .

وهذه القذائف الفكرية المتعددة التى يلجأ إليها الاتحاد السوفيتى تصيب كلها الغرب فى الصميم وتوقع فى صفوفه ضرراً بليغاً . لماذا ؟ لأن شعوب الغرب تقبل المناقشة فيها ، وهى تعلم علم اليقين أنها كلها أكاذيب ومفتريات ، ثم لماذا مرة أخرى ؟ لأن شعوب الغرب تفتقد الشجاعة التى تحملها على التوقف عن حديث السلم . والإصرار على الحرية بدلا من ذلك .

ضعف الغرب يستغله الاتحاد السوفيتى

١ — القومية

فى اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة فى سبتمبر ١٩٦٠ ، ذلك الاجتماع الذى اكتسب شهرة واسعة ، استطاع المستر خرشوف أن يستغل عدداً من نواحى الضعف مكن له الغرب منها . أولها وأهمها ارتباك مرده افتقاد الهدف،وافتقاد الاتجاه ، وافتقاد الإيمان بين شعوب الغرب الكبرى . فلقد كان من أثر افتقاد الإيمان الذى يسمو فوق حدود القومية أن بقيت شعوب الغرب غارقة عند مستوى القومية الضيق . وقد أدى ذلك ، فيما يختص بالولايات المتحدة ، إلى الحيلولة بين الأمريكيين وبين تطوير سياستهم بإزاءأمريكا الأسبانيةعلى أسس أكثر أستنارة ، فَحُرم الشعب الأمريكى بذلك من سلطانه الأدبى الذى كان أحوج ما يكون إليه للتدخل فى كوبا . وهكذا تحولت كوبا إلى رأس جسر فى خدمة العالم الشيوعى ، فى القارة التى قد تكون أكثر القارات تعرضاً للثورات الشيوعية .

وفى بريطانيا العظمى أدّى بقاء الشعوب الغربية عندحدود القوميات الضيقة إلى تضاؤل الرؤية عند حزب المحافظين حتى توقفت عند هدف رئيسى واحدهوأن يكسب هذا الحزب سمة الهيئة العاملة على إقرار السلام المشغولة برتق كل ما يطرأ على اجتماعات القمة من صدع ، بينما قسم

كبير من حزب العمال يحاول فى الوقت نفسه أن يبتعد ببلده عن التحالف الغربى تحت ستار دوافع لها صيغة قوية من القومية البريطانية إن لم تكن فى الواقع صيغة انعزالية .

أما فى فرنسا فقد انطلق الجنرال دى جول ، وقد خاب مسعاه فى إحراز . أى نجاح فى الجزائر كان جدير بإحرازه ، يحاول تعويض ما أصابه من فشل فيها بالعودة إلى القومية ، إلى السلطان المنعزل ، وإلى هيئة ثلاثية من الدول العظمى — وهى كلها آراء بَلِيَتْ كما بليت أساليب فرق الفرسان التى تعلمها فى الفنون العسكرية فى صباه . وفى الوقت نفسه انقسمت فرنسا على نفسها بين فريق يجاهد من أجل العدالة المجردة وفريق يجاهد فى سبيل الحرب المادية ، فإذا بها تنطلق فى اتجاه من التطرف الموغل لن ينقذها منه ويحول دون تطوره إلى حرب داخلية أسوأ من الحرب الداخلية فى أسبانيا ، سوى عودتها إلى ما عرف عنها من اعتدال وتعقل .

وإنه لتصور غريب حقاً أن يكون الشعب الذى يبدو أقل تعرضاً لآفات القومية الحادة وما تفرضه من قيود صارمة هو الشعب الألمانى (أم يجدر بنا أن نقول إنه كونراد أديناور ؟) . فأياً كانت الأهداف النهائية التى يسعى إليها أديناور فإن مما لا يمكن أن يتطرق إليه الشك أن المستشار الألمانى فى بقائه اليومى مع القَدَر قد استطاع دائماً أن يرى الأمور كما يراها الألمانى ، ولكنه الألمانى الذى ينظر من زاوية عالمية واسعة . وقد أبرأت التجربة القاسية الحزب الاشتراكى الألمانى والحزب الديمقراطى

الاتحادى من علة أوهامهما . وإن اختيار ويلى براندت ليكون المستشار البديل لهو أمر له مغزاه ، لما لبراندت من شخصية أوروبية برئت من قيود القومية الضيقة . وهكذا يبدو الغرب عاجزاً عن الارتفاع بنفسه فوق حدود هذه القومية الضيقة إلى الآفاق الواسعة التى يدرك فيها مصيره المشترك وأنه إذا لم يدرك ذلك المصير فهو لن يستطيع أن يضع لنفسه سياسة مشتركة .

٢ — التجارة

ولم يتوان الاتحاد السوفيتى ، بما له من عين بصيرة إلى كل مافى أسلحة الغرب من ثلمات ، عن تبين الفرص التى تهيئها له المنافسات التي تجرى بين شعوب الغرب ، فأخذ العالم الشيوعى يقدم للرأسماليين الغربيين سوقين كبيرتين تتحكم فيهما القوات السياسية تحكماً كاملا . فلقد سبق لنا أن سجلنا الأسباب التى لايمكن من أجلها أن ننتظر قيام تجارة عظيمة (بالمعنى العادى المفهوم من هذه الكلمة بين الشرق والغرب غير أن مجرد هاتين السوقين بما تنطويان عليه قوة كامنة ضخمة قد أتاح للعالم الشيوعى أن يعرض عقوداً كبيرة من السلع الإنتاجية — مصانع برمتها وسدوداً لتوليد القوى المتحركة إلى غير ذلك — وأن يهدد فى الوقت عينه لتقويض السوق الغربية عن طريق عرض السلع بأسعار تقل عن الأسعار السائدة فى الغرب . بل لقد أعلن المستر خروشوف فى نيويورك أن الاتحاد السوفيتى على استعداد لولوج أية سوق عالمية تخصصية ، ومن حق أولئك الذين يعرفون ماقام به الاتحاد السوفيتى من أعمال فى سوق الزيت

المدنى أن يرتمدوا فرقاً ، والدول الصناعية الكبرى فى الغرب لا تزال مع ذلك سادرة فى تجارتها مع الاتحاد السوفيتى ، وهى بذلك تحرم نفسها من كل سلطان يمكنها أن تباشره لكن تمنع الشعوب التى تقل عنها شأناً من الاتجار معه ، مع أنها فى وضع خير من وضع الشعوب الصغرى فى قدرتها على الكف عن مزاولة هذا النشاط الضار. فنسبة تجارة الدول العظمى مع الاتحاد السوفيتى إلى مجموع تجارتها الخارجية تتراوح ما بين ٤ر٥ ٪ « إيطاليا » و ٥ر٪ « الولايات المتحدة الأمريكية » بينما هى بالنسبة للشعوب الصغرى تتفاوت من ٥ر١١ ٪ «تركيا» ٢ر٥٢٪ «مصر» وهى حالة محفوفة بنتائج وخيمة . إذ لما كان الاتحاد السوفيتى دولة ومنظمة تجارية فى وقت واحد فهو لا يتردد فى استخدام التجارة سلاحاً يفرض به الطاعة والخضوع على بعض الدول أو يعاقب البعض الآخر على استقلالها فى سياستها ، كما يتجلى ذلك فيما وقع لأستراليا إذ كلفها موقفها الحازم من مسألة بتروف فقدان السوق السوفييتية التى كانت تصرف فيها أصوافها خمس سنوات كاملة . وغير هذا المثل أمثلة أخرى كثيرة فى الاستطاعة إيرادها[1] .

ومع ذلك فلا يزال الغرب يقيم الدليل على عجزه عن توحيد موارده ، وهو لا يكتفى بأن يسمح لأساليب المنافسة البالية بأن تقسمه على نفسه بل يمد

---

(١) راجع مقال « أخطار التجارة مع اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية» لكاتبه ليون م . هرمان المنشور بمجلة « ذى نيو ليدر» بعدد ٥ سبتمبر ١٩٦٠ . وقد أورد الكاتب أمثلة أخرى من فنلندا وأيسلاندة وإيران واليونان ويوجوسلافيا والدانيمارك (المؤلف) .

خصمه بالأدوات التى يستخدمها هذا الخصم فى القضاء عليه . والعلاج الصحيح لذلك هو فى إنشاء وكالة موحدة للاتحاد مع العالم الشيوعى ، ولكن حتى هذا العلاج على بساطته لا أثر له فى الأفق .

٣ — الخوف من الحرب

إن شعور الخوف من الحرب ، وهو شعور طبيعى وعام بالطبع يؤثر بطرق مختلفة فى كل من العالم الشيوعى والعالم الحر . فالعالم الشيوعى تديره حكومة قوية واحدة تجمع فى يدها كل السلطان وتشرف إشرافاً كاملاً على جميع وسائل الإعلام ، ومن ثم ففى استطاعتها أن تستخدم الخوف من الحرب كوسيلة قوية لدعم نفسها ضد أولئك « الإمبرياليين الأوغاد » أما فى العالم الحر فإن هذا الخوف قد يتحول إلى أداة ناجحة فى أيدى أحزاب الشيوعية تستخدمها فى التأثير على الرأى العام ودفعه إلى نوع من التنافس على السلم لا بين الحكومات فحسب بل وبين الأحزاب كذلك .

وقد استخدم المستر خروشوف هذه الأداة إلى أقصى حد وأكمله . ففى ميدان الاستهلاك المحلى تراه يعلن عن نفسه بأنه رجل السلام ، ثم هو لا يفتأ يعيد البديل السوفييتى للمثل المعروف « إننا لا نريد الحرب ولكن آه لو حاربنا » ، لكى يخيف بها الغرب ، بل لقد كانت تمثيلياته التى قام بها فى نيويورك رائعة مبدعة .

٤ — نزع الأسلحة النووية

وهناك جانبان من جوانب استغلال هذا الخوف لا بد من التشديد عليهما

أما أولها فيتصل بخطر الأسلحة النووية . فإن مجرد وجود حملة فى بريطانيا العظمى تنادى بخطر الأسلحة الذرية لهو دليل على أن خطر الإبادة فى حالة وقوع حرب نووية كان كافياً للقضاء على التوازن العقلى عند بعض الناس حتى من كان منهم من الخاصة من أمثال برتراند رسل. بل لقد تولى الأستاذ المبرّز فى علم المنطق تحديد الأسباب التى حملته على اتخاذ هذا الموقف فى عبارته التالية « إن هذه الأسباب هى أولاً إنقاذ الشعب البريطانى من خطر الإبادة فى حالة وقوع حرب بين بريطانيا وروسيا وحدهما ، وثانياً إضفاء نفوذ جديد على بريطانيا فى جهودها من أجل تخفيف حدة التوتر بين الشرق والغرب بتحولها إلى عضو هام فى جماعة الدول المحايدة »[1]

وإنه لمن الواضح فى هـذا الصدد أن المستر خروشوف ، فى الوقت الذى يتهدد فيه كل دولة تسمح لنفسها بالاشتراك فى أعمال التجسس بالطائرات بتدميرها بقنابله النووية ، يحرص الحرص كله على ألا يعرض نفسه ويعرض العالم إلى نتائج مثل هذا العمل . وليس أقل وضوحاً من ذلك أن بريطانيا العظمى لا يمكن أن تـكون دولة محايدة ، لأنه ما من دولة تستطيع أن تـكون محايدة إلا إذا هى اعتمدت على قوة العالم الحر وليس من شيمة الشعب البريطانى أن يسمح لنفسه بأن يكون فى حمى غيره .

والواقع أن هذا الخطر الجديد الذى يتهددنا جميعاً من جراء الأسلحة النووية قد أفقد أولئك الذين يطالبون بوقف تسلحهم الذرى « من

(١) جريدة الأوبزرفر اللندنية — عدد ٢ أكتوبر ١٩٦٠

جانب واحد » عن متابعة كل تفكير فى الشئون الخارجية لقد كان الناس منذ جيلين مضيا يتجنبون عبورالطريق التى تجرى فيها السيارات بسرعة القاطرات ، ومن باب أولى كانوا يمتنعون عن ركوب سيارات تنطلق بسرعة ستين أو ثمانين ميلا فى الساعة على تلك الطريق أما اليوم فكل إنسان يستطيع أن يفعل مالم يفعله أجداده فى هذا الصدد دون أن يراودهم أى تفكير فيما ينطوى عليه ذلك من مجازفة . ومثل هذا التغير الذى طرأ على عقلية الناس فيما يتعلق بالسير فى الطريق قد طرأ عليهم كذلك فى شئون العالم . فإن خطر الحرب الذى ظل يلازم عقولهم ، قد خفت وطأته الآن ، وإن كانت الكوارث الفعلية للحرب ، إذا ماوقعت الواقعة ، لابد أن تكون أشد فتكاً .

غير أن ذلك ليس من شأنه — أو هو لا يجوز أن يكون من شأنه — أن يغير الملابسات العامة للموقف . فهناك مسائل يمكننا أن نساوم عليها ومسائل أخرى لا يمكن أن تكون محل مساومة . والمسألة الهامة فى الموقف ليست ما عساه يحدث لنا بل من هو خصمنا وما هو موضوع النزاع ؟ ولا يزال الموقف المعقول هو ما سبق أن أشرت إليه على صفحات هذا المؤلف (١) وقد جاءت تصرفات الاتحاد السوفييتى خلال عام ١٩٦٠ فأثبتت سلامته .

---

(١) راجع الفقرة الرابعة « مسئوليات الحرب الساخنة » فى باب (القوة والسلطان .)

٥ — التيتووية الصينية :

كثر الحديث عن الخلافات فى الرأى بشأن الحرب الباردة والحرب الساخنة ، تلك الخلافات التى قسمت العالم الشيوعى على نفسه . فبينما يبدو المستر خروشوف فى مظهر من يناصر السلم والتعايش السلمى ، يبدو المستر ماوتسى تونج ، وقد استشعر القوة من جراء مالديه من الاحتياطات الصينية الهائلة من الكتل البشرية ، حريصاً على شن حرب ساخنة . فإذا ظلت هذه الخلافات تستطرد فإن العودة إلى الوهم القديم الذى يتصور احتمال انحراف الصين قد تكون أمراً طبيعياً .

ومع ذلك هل نسينا ما قرأناه عن ولع الصينيين بالنمور المصنوعة من الورق ! ؟ وأى عضد كان يمكن للمستر خروشوف أن ينتظره من أصدقائه فى بيكين أكثر من أن يرى الصين تستجيب إلى تهديده بالحرب إذا حدث هذا الشىء أو ذاك ، فتعلن من أقصى الأرض بأنها تتوق إلى حرب شاملة ، ثم تتبع ذلك فى أوقات أخرى بأن تظهره أمام العالم بأنه رسول السلم الذى يحد من نار الحرب المندلعة من أفواه النمور الصينية ؟

ولكن ماوتسى تونج هو الآخر رسول سلام ، وإن اختلف عن خروشوف فى ناحية بسيطة هى أن أولهما يؤمن بأن السلم لا يمكن أن يتأتى إلا عن طريق حرب ساخنة وثانيهما يرى أن من الممكن تحقيق السلم عن طريق حرب باردة — إنها حرب فى كلتا الحالتين ولكنها

حرب يمكن أن يطلق عليها « حرب التعايش السلمى » . وهل يمكن أن تكون هذه الفروق البسيطة بين تجار الحرب الباردة فى موسكو وتجار الحرب الساخنة فى بيكين إلا شيئاً يسيراً ؟ ومع ذلك فإن حقائق الموقف تظل هى بعينها فى جميع الحالات .

(أ) فالاتحاد السوفييتى لا يستطيع أن يجازف بحرب ساخنة لأن الشعوب فى جميع أجزاء أوربا الشرقية (ونسبة كبيرة كذلك من سكان الاتحاد السوفييتى نفسه) سوف يثورون ، والصين كذلك لا يمكن أن تجازف بمثل هذه الحرب للأسباب نفسها .

(ب) إن الخلافات بين الصين والاتحاد السوفييتى ستظل دائماً أقل من الخلافات التى تفصل بينهما ، وتفصل كليهما ، عن العالم الغربى . وقد وضح ذلك بجلاء فيما طالب به المستر خروشوف بشدة فى سبتمبر ١٩٦٠ بضرورة قبول الصين فى عضوية الأمم المتحدة .

٦ — مفاوضات القمة

وثمة ناحية أخرى من نواحى الضعف فى العالم الغربى استطاع المستر خروشوف أن يستغلها بمهارة . تلك هى اللهفة التى لا أساس لها من الحكمة أو التعقل إلى مزاولة أساليب الشعوذة السياسية عند القمة التى ترتبط فى عقول من نشئوا على التأثر بما تسميه الصحافة باجتماعات القمة ، وهى اجتماعات ليس لدى المستر خروشوف ما يخسره

فيها ، بل إن فيها الكثير مما قد يريحه ، وحسبنا الحوادث التى وقعت خلال مؤتمر باريس دليلا على صحة ذلك .

فلقد أحسن الشيوعيون اختيار الوقت الملائم لهذا المؤتمر فى وقت كانت فيه انتخابات الرئاسة فى أمريكا على الأبواب . والانتخابات الأمريكية وباء من الحمى يصيب الغرب كل أربع سنوات فيشل حركته ويترك لموسكو فرصة للظفر بغنائم كثيرة ، بينما الغرب يمسك برأسه المشتت الذى يشكو من شدة ما به من صداع بين يديه . وكذلك كانت ثورة بودابست واحدة من تلك الحالات التى فى الصميم ، بقدر ما كانت أحداث باريس كذلك مأساة مضحكة أدت ضربة المستر خروشوف فى العاصمة الفرنسية إلى تفكيك الجبهة الأمريكية وتركت الأحزاب الأمريكية والمرشحين الأمريكيين يتزايدون على من منهم يستطيع أن يقدم أكبر كسب مجز لموسكو .

وكان طبيعياً فى خلال تلك العملية أن يتأثر نفوذ الرئيس أيزنهاور وسلطانه . وإنه لمن عجب أن يتعرض أيزنهاور لهجوم خصومه فى أمريكا وأن يلام على كل شىء ما عدا الخطأ الوحيد الذى ارتكبه : فلقد لاموه على إرسال الطائرة « ى — ٢ » (كما لو كان التجسس عملية لا يزاولها الجميع وكما لو كان الرئيس أيزنهاور مسئولا عن حادث لا يخرج عن أن يكون نتيجة الحظ السىء) ولاموه على تباطئه فى الإعلان عن عدم اعتزامه إرسال طائرات أخرى للتجسس ، كما لاموه على مسائل أخرى تافهة لا يثيرها إلا أولئك المتفائلون الذين لا أمل فى شفائهم من تفاؤلهم

والذين يؤمنون بأنه لولا هذا أو ذاك من الأخطاء التى ارتكبها الغرب لكان السلم الدائم يسود اليوم بين الاتحاد السوفييتى والعالم الحر .

أما فى واقع الأمر فإن الرئيس ايزنهاور لم يرتكب الإ خطأ واحداً ذلك هو ذهابه إلى مؤتمر للقمة إطلاقاً ، إلا أنه ذهب — على خلاف ما أعلنه من قبل — دون أن يكون لديه دليل أو حتى شبه دليل على أن الاستعدادات الكافية قد اتخذت لنجاح هذا المؤتمر فحسب ، بل لأنه ، وهو رئيس دولة من الدول ، قد ذهب إليه كلية فلو كان الرئيس أيزنهاور قد ألقى نظرة على « مقالات بيكون » إذن لطالع فى الجملة الافتتاحية مقالة عن « التفاوض » أن « من الأفضل عامة أن يجرى التخاطب بالكلام منه بالكتابة ، وعن طريق وساطة شخص ثالث منه عن طريق الشخص نفسه » : فلو حللنا هذه العبارة وترجمناها إلى ما يقابلها من الحكمة كان معناها « أن من الأفضل أن تجرى المفاوضات عن طريق السفراء من أن تجرى عن طريق مؤتمرات القمة وهى نتيجة تتمثل فيها حكمة القرون السابقة فى المعاملات بين شعب وشعب آخر . وهى ولا شك حكمة لا تنفى بحال من الأحوال ضرورة وجود منظمات دولية كمجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة ، لبحث الشئون الجارية ومعالجة ما ينجم فيها من خلافات عامة ولكنها حكمة تحتقر المؤتمرات المحفوفة بالخطر والمجازفة والتى لايمكن أن يركن إليها إطلاقاً ، كتلك التى عقدت فى يالتا وطهران وبتسدام ، وكانت المصدر الأول لجميع متاعبنا .

فهل منا من يستطيع أن يعرف كنه ما دار فى كامب دافيد عندما « تحدث » المستر خروشوف بأسلوبه الماكر الملتوى مع المستر أيزنهاور بما عهد فيه من صراحة واستقامة فى اجتماع لم يكن لهما ثالث فيه ؟ إن القوة والارتجال لايسيران جنباً إلى جنب ، ومن ثم فإن الرجال الذين يحملون معهم قسطاً وفيراً من القوة لاينبغى لهم أن يعرضوا أنفسهم لأخطار الارتجال ، بل يجب عليهم أن يظلوا باقين فى بلدهم وأن يتتبعوا مجرى الحوادث عن بعد وفى هدوء كامل ، وأن يعطوا أنفسهم من الوقت ما يسمح لهم بممارسة قوتهم ونفوذهم بقدر كاف من التفكير والتأمل . نعم فلقد أخطأ الرئيس أيزنهاور ، ولكنه لم ينفرد بهذا الخطأ بل شاركه معظم مواطنيه بما فيهم معظم ناقديه ، وهو خطأ يقوم على تعريض نفسه لمجازفة لا يجوز لمن كان رئيس دولة أن يعرض نفسه لها

ومن بين هذه المجازفات على وجه التحديد ، وقد لاتكون أخطرها ولكنها مع ذلك تنطوى على قسط كافٍ من الخطر ، ما أصاب الرئيس أيزنهاور فى باريس مع الأسف . فرئيس الدولة هو رمز الشعب وهو الشخصية التى يتمثل الشعب فيها . وقد باشر الرئيس أيزنهاور واجبات منصبه هذا ، بفضل ما كان له من سجل رائع خلال الحرب ، بأقصى قسط من الكرامة والاحترام ، وساعدته مواهبه الشخصية على أن يرفع علم بلاده عالياً أنى ذهب . فأية حاجة كانت به لأن يعرض نفسه ، وأن يعرض بلاده معه ، إلى الصد الخشن من فلاح روسى أدار رأسه النجاح (وهو بهذه المناسبة نجاح كان الغرب بسذاجته وقلة حرصه السبب

الأكبر فيه) ، حسبنا على أى حال أن نقول هنا إن التاريخ لم يسجل على صفحاته من قبل مثلاً يبرز فى خشونته واستهتاره ماحدث وقتئذ بشعب فاضل كالشعب الأمريكى ، ويزيد من وقعه أن هذا الشعب لم يجن ما يستحق عليه شيئاً مما وقع له .

على أن هذا الحادث لن يضيع أثره هباء لو أن الغرب استطاع أن يهضم هذه التجربة ، وأن يحولها إلى درس نافع له سواء فى تفكيره أو فى أعماله . وقد لا يكون إيراد بعض الاقتراحات هنا من غير فائدة . وأول هذه الاقتراحات هو ضرورة إدراك أن « المحادثات » — سواء أكانت على مستوى القمة أم على ارتفاع التل أم فى منخفض الوادى — هى بالنسبة إلى الغرب عمل من أعمال السلم . أما بالنسبة للكرملين فهى عمل من أعمال الحرب الباردة ، وأن هذه المحادثات ، بناء على ذلك لن تكون ذات جدوى للغرب إلا إذا هو تقبلها على أنها عمل من أعمال الحرب الباردة . وثانى هذه الاقتراحات هو أن رؤساء الدول لا يجوز لهم إطلاقا أن يتفاوضوا بأشخاصهم .

ولا يهم فى ذلك أن تكون لرئيس الدولة سلطات تنفيذية كسلطان رئيس الوزراء فى بريطانيا أو لا يكون ، فإن مجرد كونه رئيساً لدولة يجب أن يثنيه عن ركوب الأخطار التى تنجم عن كل مجازفات مسرحية خطرة .

والواقع أنه ليس ثمة ما يمكن أن يقال فى تبرير ما نشاهده اليوم من نزعة رؤساء الوزارات إلى اغتصاب ماهو من صميم أعمال وزراء الخارجية

وهى نزعة أسهم بعض رؤساء الوزارات من ذوى القوة والشكيمة من أمثال المستر ماكيلان والمستشار أديناور بقسط كبير فى تقويتها ودعمها . صحيح أن هذه النزعة تستمد بعض مصدرها من بعض المظاهر الموضوعية التى تتسم بها حياتنا الدولية الحديثة كالتداخل المتزايد بين الشئون الخارجية والداخلية الذى يزداد كلما ازدادت الحروب شمولية وتعقيداً فى آثارها ، ولـكن حتى مع ذلك فإن مهمة الاتصال بالعالم الخارجى لها من معالمها الواضحة ما يحتم تركها فى يد خبير الشئون الخارجية داخل هيئة الوزارة . وإذا كان هناك فى بعض الظروف الاستثنائية ما يحتم دعوة مؤتمرات فوق مستوى السفراء فإن من الخير أن تترك أمورها لوزراء الخارجية من أن يتولاها رؤساء الحـكومات .

تهديد الأمم المتحدة

ولقد أخذ الهجوم الذى شنه المستر خروشوف على الأمم المتحدة فى سبتمبر ١٩٦٠ صورة حملة موجهة ضد المستر داج همر شولد ، الظاهر بقصد زحزحته من منصبه وإحلال هيئة من ثلاثة أشخاص مكانه تعينهم على التوالى المعسكرات « الرأسمالية » والشيوعية والمحايدة . ومن المحتمل أن تـكون مرارة هذه الحملة ضد سكرتير عام الأمم المتحدة قد بولغ فيها عن عمد ، فعلى الرغم من الظواهر ، وعلى الرغم من مأساة الـكونجو المهزلية التى عجز فيها الاتحاد السوفيتى عن تحقيق أهدافه . فإن المستر خرشوف لا يبدو فى مشاعره نحو السكرتير العام مدفوعاً بحقد خاص ، بل الواقع أن الدكتاتور السوفيتى لـكى تعطيه حقه ، يبدى قدرة هائلة

على ضبط مشاعره الشخصية ، حتى إذا ترك العنان لنفسه فى هجماته الشخصية ، كما حدث مع المستر همرشولد ومع الرئيس أيزنهاور ، كان من المحقق أنه يستطيع أن يطفىء نار هجماته ويسكت رعد غضبه فى اللحظة التى يريدها .

لعل هدف المستر خرشوف من حملاته على الأمم المتحدة ليس هو تعديل دستورها بقدر ما هو القضاء على هيبتها وفائدتها . إن هذه الهيئة مفيدة بالنسبة له إلى الحد الذى يستطيع أن يستخدمها فيه منبراً لدعاياته ، ولكنه لا بد له من أن يرى فيها هيئة غير مجدية بالنسبة إلى أهدافه البعيدة . وليس من العسير على المرء أن يتبين سبب ذلك. فالجمعية العامة للأمم المتحدة هى البرلمان الوحيد الذى يتعين عليه أن يحضر جلساته وعليه أن يتقيد بصورته : وإن مرد كثير من ثورات الغضب التى يجافيه فيها الاعتدال والكياسة خلال مؤتمراته الصحفية ومقابلاته المختلفة قد يكون انعدام خبرته انعداماً كاملاً بأية ممارضة أو حتى بالدخول فى أية مناقشة ، بينما هذه كلها مواقف مألوفة لدى الغربيين . وقد دلته التجربة على أن المندوبين فى الأمم المتحدة هم أبعد ما يكونون عن الخنوع أو عن أن يكونوا رجالاً ممن اعتادوا أن يقولوا دائماً « موافقون » على نحو ما يعهده فى مندوبيه فى مجلسه المعروف بمجلس السوفييت الأعلى .

وأما أن الهيئة الثلاثية التى يريد المستر خرشوف أن يحلها محل سكرتير عام الأمم المتحدة من شأنها أن تشل حركة الأمم المتحدة فهى

مسألة طالما شرحت شرحاً كافياً ، ولكن هذا فيما يبدو لا يعنيه أن يقلق باله فى كثير أو قليل لأنه لا يرى فى الأمم المتحدة فائدة له .
فنى الوقت الذى كان يجرى البحث فى ميثاق الأمم المتحدة ، نشرت صحف العالم الحمراء كلها ، بإجماع سحرى ، المقالات الطوال تثبت أن الشعوب الصغيرة هى مصدر قلق وإزعاج فى شئون العالم وأنها يجب أن تبقى حيث هى[1] ، فالاتحاد السوفييتى هو أكثر شعوب العالم رجعية فى مثل هذه المسائل ، ولن يراوده أى شعور بالأسف وهو يرى الأمم المتحدة تختفى من الوجود لتحل محلها « لجنة من الدول العظمى » .

حسبنا هذا القدر عن الضرر الذى لابد لاحق بالأمم المتحدة من جراء اقتراح المستر خروشوف . غير أن المستر خروشوف يطمع فى كسب مزايا إضافية أخرى من الطريقة التى يحاول بها الإضرار بالأمم المتحدة فإذا تحققت له الهيئة الثلاثية التى يقترحها مكان السكرتير العام فإن من شأن ذلك أن يقسم العالم إلى القطاعات الثلاثة التى حدد معالمها تحديداً قاطعاً ، وهى قطاعات لا تنفصل عن بعضها فى الوقت الحاضر هذا الانفصال الجامد . وهكذا فإن العالم المحايد ، أو عالم الحيدة ، أو العالم غير المنحاز سوف يظل ينحاز دائماً إلى جانب الحياد ، بل إن ما يثلج قلب خرشوف أكثر من ذلك هوما يترتب على ذلك من اعتراف

(١) وتبعها فى ذلك كثير من الصحف « نصف الحمراء » كما تسير الأغنام خلف راعيها . وإنى لأذكر فى هذا الصدد أنى اضطررت وقتها إلى أن أبعث بخطاب أنفى فيه هذا الهراء إلى جريدة من أمهات الجرائد هى « ذى نيوز كرونيكل » اللندنية (المؤلف) .

بالإمبراطورية الشيوعية بوضعها الراهن ، وكما سبق لنا أن بينا ، ما من شيء يمكن أن يصيب العالم الحر أكثر من أن يعترف بالشعوب التي ضربت عليها الذلة وشدت بالأعناق إلى الإمبراطورية الشيوعية ، كجزء من هذه الإمبراطورية ، سواء أكان الاعتراف قانونياً أو عملياً والواقع أن من حقنا أن نقرر في توكيد ، وفي مأمن من الزلل ، بأن الغرب في خطر من أن يخسر الحرب الباردة إذا ترك الناس يتخيلون ، أو حتى يشكون في أن حرية أوروبا الشرقية ليست الهدف الرئيسي للعالم الحر من حربه الباردة .

وهناك في الوقت الحاضر مسألة أخرى يحرص الاتحاد السوفييتي على أن يراها موضوع البحث في هذه الاجتماعات التي تعرف « باجتماعات القمة » وليس في الأمم المتحدة . تلك هي مسألة برلين التي هي في واقع الأمر مسألة ألمانيا برمتها . فلقد ظل المستر خروشوف يصر على أنها مسألة تخص الدول الأربع وأنها لا تعني الأمم المتحدة . وهي كذلك في الواقع من الناحية القانونية ، ولكن على شرط أن توفق هذه الدول إلى حلها ، فإذا لم توفق إلى حلها فإن ولاية الأمم المتحدة على هذه المسألة تصبح مسألة طبيعية دون شك . والواقع أن تهديدات المستر خروشوف التي لا تنقطع بأنه إذا لم تعقد معاهدة صلح بين شطري ألمانيا (جمهورية ألمانيا الاتحادية ومنطقة ألمانيا الشرقية) فإنه لابد عاقد معاهدة مع « جمهورية ألمانيا الديمقراطية » يكون من أثرها وضع حد ، بطريقة آلية ، للوضع القائم في برلين في الوقت الحاضر ، هي

تهديدات تنطوى على انتهاك سافر للأسس القانونية لوضع برلين إلى حد يدفعنا إلى التساؤل : لماذا لا تتجه الدول الغربية العظمى الثلاث إلى محكمة العدل الدولية لتحتكم إليها فى هذه المسألة ؟

وقد يكون هناك سبب ثالث للحملة العنيفة التى يشنها المستر خروشوف على الأمم المتحدة . ذلك هو رغبته المحتملة فى تعجل الحيلولة دون تنفيذ اقتراح تردد فى أماكن كثيرة ، وهو يقضى بنقل مقر الأمم المتحدة إلى برلين . فقد يؤدى قبول هذا الاقتراح إلى اعتبار برلين — برلين كلها بطبيعة الحال — فدرالية عالمية ، وأن يعطى للأمم المتحدة الحق فى الاحتفاظ بقوة لحمايتها ، مما يؤدى بدوره إلى فصل مسألة برلين فصلا تاماً عما يسمى مسألة «إعادة توحيد ألمانيا» . أو كما نفضل نحن أن نسميها مسألة تحرير المنطقة الألمانية الشرقية . ومن شأن هذا الاقتراح كذلك أنه يحل مسألة حرية الوصول إلى برلين بطريقة آلية ، ولن يسعد بذلك أحد أكثر مما يسعد به أهل برلين الشرقية أنفسهم . ولذلك فلما كان هذا الاقتراح خليقاً بأن يحرم الاتحاد السوفييتى من إحدى نقط ارتكازه السياسية الرئيسية التى يعتمد عليها فى إكراه الغرب على الاعتراف بنظام بانكو ، فإن من المشكوك فيه أن يرحب المستر خروشوف بمثل هذا . ولعل فى هذا ما يفسر حملته الشاملة على منظمة الأمم المتحدة برمتها وما يتهمها به من تحيز .

الموقف بصفة عامة

وهكذا لم يكن الموقف عندما أخذ عام ١٩٦٠ يدنو من نهايته بأحسن مما كان فى مطلعه ، بل لقد استجد عدد من الحوادث المقلقة التى زادت الموقف تعقيداً على تعقيده . على أن خطر وقوع حرب ساخنة عامة ليس أكبر مما كان — بل لعله أقل احتمالاً — على الرغم من مسلك الصين المشرب بحب الحرب . والقوات التى تقف ، أمام بعضها البعض فى أوروبا هى هى تقريباً فيما عدا بعض الاستقرار تبدو فى فرنسا وفى إيطاليا ، وفيما عدا الخطر الذى يحيط بنظام الحكم فى أسبانيا الذى عجز عن الاستجابة إلى الحقن الاقتصادية التى تحقنه بها الولايات المتحدة ومنظمة التعاون الاقتصادى الأوروبى .

أما فى آسيا فإن الصين لم تحرز تقدماً يسترعى الالتفات ، بل الواقع لعلها خسرت قسطاً كبيراً من سمعتها نتيجة للمسلك الوحشى الذى انتهجته بإزاء التبت ، بينما اليابان تبدو أقل صلابة مما كانت ، والهند لا تفتأ تعتمد اعتمادا يكاد يكون اعتمادا كليا على المستر نهرو — وهو موقف خطر بالنسبة إلى دولة عظيمة وهامة كالهند .

وأما فى أفريقية فقد كان من أثر تحرر المستعمرات البريطانية والفرنسية فيها أن انفتح الميدان أمام الاتحاد السوفييتى ليشق طريقه إلى هذه الدول الحديثة ، فأصاب فى ذلك درجات متفاوتة من النجاح . ولا تزال بعض الأقطار الأفريقية الشاسعة كجنوب إفريقية وكينيا ،

يحيط بها الغموض نتيجة لأسباب مختلفة .

وفى أمريكا الأسبانية كان تسلل الشيوعية بين طبقات الشعب المستنيرة ، ولا سيما فى الجامعات (بين هيئات التدريس والطلاب على السواء) من المسائل التى تبعث على القلق ، وبصفة خاصة فى الوقت الحاضر ، حيث أتاح حكم كاسترو قاعدة بديعة للاتحاد السوفييتى وللصين تمارسان منها عملياتهما فى الحرب الباردة فوق الخطوط الخلفية للولايات المتحدة .

إنها صورة غير وردية بحال من الأحوال : وإنه لمن العبث أن نظل نناشد الطرفين أن يحاولا الوصول إلى نوع من الاتفاق ، فالطريق إلى مثل هذا الاتفاق محفوف بالخيبة والهزيمة المتوقعة . وما من شك فى أنه لا ينبغى للعالم الحر أن يأمل فى تحقيق السلم قبل أن يكون قد انتهى من كسب الحرب الباردة — قبل أن يكون قد نجح فى تحقيق قدر من الحرية فى العالم يسمح للسلم بأن يزدهر ويترعرع .

الناشر
مؤسسة سجل العرب
بإشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده
٢٦ شريف باشا بالقاهرة ت ٤٩٩٩٩

